

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (٣)

صفحات من الماضي القريب

ابو خلدون ساطع الحصري



صفحـــات
من المـاضي القـريب



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

الاعمال القومية لساطع الحصري: (٣)

صفحات من الماضي القريب

ابو خلدون ساطع الحصري

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص. ب. : ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

طبعة خاصة(*)

الطبعة الاولى : بيروت : كانون الاول/ ديسمبر ١٩٨٤
الطبعة الثانية : بيروت : حزيران/ يونيو ١٩٨٥

(*) نشر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٤٨.

المحتويـــات

مقدمـــة

هذه طائفة من الآراء والأحاديث والمحاضرات كُتبت أو ألقيت أو نشـرت . . في أوقات مختلفة . . في بغداد ، أو بيروت ، أو دمشق أو القاهرة . . .

ولقد رغبت إليّ « دار العلم للملايين » أن أجمعها وأنشرها بين دفتي كتاب ، فلم أرَ بداً من الموافقة على ما أرادت .

إن هذه الآراء والأحاديث تحوم حول بعض الصفحات من الماضي القريب . . ذلك الماضي الذي تباعد عنا بعض البعد ، دون أن يمضي إلى حدود التاريخ البحت . . ذلك الماضي الذي يكاد يكون حياً إلى الآن . . . لأن الذكريات التي تركها لا تزال حادة حية ، ولأن عدداً كبيراً ممن شهدوا وقائعه ـ بل وعدداً غير قليل ممن تأثروا بتلك الوقائع وأثروا فيها ـ لا يزالون أحياء . .

إن هذه الآراء والأحاديث ، تحوم حول بعض الصفحات من ذلك الماضي القريب . . . وقد يسألني سائل : أهي سياسية أم تاريخية ، اجتماعية أم فلسفية . . ؟ وأما أنا ، فلا أرى داعياً لنعتها بأحد هذه النعوت ، على وجه التخصيص .

أفلم يقل أحد المفكرين ـ منذ عقود من السنين ـ « إن التاريخ هو السياسة في الماضي ؟ والسياسة هي التاريخ في الحاضر » أفلم تكن جميع القضايا التي تعالجها السياسة ويسجلها التاريخ ، من مظاهر « الحياة الاجتماعية » ، بمعناها الشامل العام ؟ أو لم تتلخص مهمة « الفلسفة » في « اقتطاف أينع أزهار الفكر وأنضج أثمار العلم ، بغية مزجها واستقطارها ، لتركيب أثمن العصارات وأذكى الأكاسير ؟ » .

فما الداعي لحصر كل بحث من الأبحاث في حدود خزانة من هذه الخزانات

المتفرقة التي اعتدنا تسمية كل واحدة منها باسم خاص ؟ إن شؤون الحياة معقدة ومعضلة جداً ، وشؤون الحياة الاجتماعية أشد تعقداً وأكثر إعضالاً من جميع ضروب الحياة ، بوجه عام . وفي هذه الحياة الاجتماعية من الشؤون والمسائل المتشابهة ما تأبى طبيعته التفرق والتوزع على الخزانات التي ذكرنا أسماءها آنفاً .

ولهذا السبب ، لم أرَ أن أنعت هذه الآراء ، والأحاديث ، بالسياسية ، أو التاريخية أو الاجتماعية أو الفلسفية . . . إنها آراء وأحاديث قيلت وكتبت في مناسبات مختلفة ؛ ولكنها استهدفت في جميع هذه المناسبات غاية واحدة ، هي : تفنيد وتصحيح بعض الأخطاء الشائعة ، مع تحذير الأذهان من الانخداع بالدعايات الخلابة في التاريخ وفي السياسة . .

ولذلك أعتقد أن هذه الآراء والأحاديث التي تحوم حول بعض الصفحات من « الماضي القريب » ، لن تخلو من بعض الفائدة . . لشبان « الحال الحاضر » ولرجال « الآتي القريب » .

أبو خلدون

صور وذكريات

فيصل الكبير

لقيته لأول مرة في دمشق ، عقب عودته من مؤتمر الصلح في باريز ، استعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء الامريكية. ولا أزال اذكر تفاصيل تلك الملاقاة ، بكل تفرعاتها وجميع انطباعاتها :

دخلت عليه، ليلاً ، في قاعة من قاعات قصر الجسر ، وكان جالساً على كرسي في احد أركان القاعة ، بجانب مصباح كهربائي شديد التنوير . وكان يرتدي لباساً يختلف عما كنت قد اعتدت رؤيته على « شرفاء مكة » في الاستانة : فعوضاً عن الجبة السوداء الغليظة التي تستر البدن والعمامة البيضاء المفلطحة التي تتوّج الرأس وتترك ذيلها يتدلى إلى الجانب . . فعوضاً عن ذلك اللباس الشريفي التقليدي ، كان يرتدي رداء رقيقاً أبيض وكوفية فضفاضة بيضاء . وكان بياض هذا اللباس ناصعاً ، لا يتخلله شيء غير زركشة العقال الذي يتلألأ حول الرأس ، وبريق الخنجر الذهبي الذي يبدو عند الخاصرة . وكان وجهه الطولاني الأسمر ، يظهر من بين هذه الكوفية البيضاء ، كقطعة من البرونز ، تلمع فيها عينان تفيضان بالحركة والحياة . وكانت حركات صدره تبدو بوضوح من تحت هذا الرداء الرقيق ، وتنم عن حيوية عنيفة وطموح شديد . . .

عندما سمع اسمي ، بدا على تقاطيع وجهه تحوّل فجائي وأبرقت عيناه بابتسامة عميقة ، ولم تلبث أن ظهرت دواعي هذا التحول وهذه الابتسامة ، بهذه الكلمات التي بدأها بشيء من التلعثم وأتمها بأداء متزايد الاندفاع :

ـ كلما كنت اقرأ لك واسمع عنك ، كنت اتخيلك شيخاً متقدماً في السن . ولهذا السبب سررت جداً من مشاهدتك هكذا ، في سن الكهولة وعهد النشاط . وهذا من

حسن حظ الأمة العربية : سيكون أمامك مجال واسع لتخدمها في حياتها الجديدة، كما كنت تخدم الدولة العثمانية في عاصمتها . .

ان العلاقة التي بدأت بيني وبينه تلك الليلة على هذا المنوال ،كان مقدراً لها أن تستمر وتتوطد بدون انقطاع ، مدة تزيد على أربعة عشر عاماً بقيتُ بجانبه ، وعملت في معيته حتى أواخر أيام حياته ، فاطلعت على دخائل نفسه في ظروف متنوعة ، وتبينت خصاله بكل تفصيل وبكل تأكيد .

رأيته في أشد ثورات الغضب ، وأعمق حالات الرضى ، عاشرته في أتعس أيام الخيبة وأسعد سني الفوز ؛ رافقته في أحرج ظروف حياته ، وفي أبهج أيام نجاحه : فكنت بجانبه عندما أخذ يسير ـ يوم ميسلون ـ في طريق المزة ، تحت وابل من قنابل الطيارات الفرنسية ، وبقيت بجانبه عندما كان يتردد فيما يجب عمله أولاً في الكسوة ثم في درعا ، ورافقته في الباخرة عندما انتقل من بورت سعيد إلى نابولي ، مودعاً حياة حافلة بشتى الأعمال والذكريات ، وملتمساً حياة جديدة تكتنفها أنواع الاحتمالات . كما أنني كنت بجانبه عندما أخذ يتجول في مختلف أنحاء العراق ، بعد انتخابه ملكاً عليه . وبقيت إلى جانبه طوال سني كفاحه وعمله هناك . عاشرته معاشرة مستمرة خلال جهوده المضنية في سبيل حل المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تتوالى بدون انقطاع على ملكه الجديد . رأيته في شتى الاحتفالات الرسمية وفي أفخم الفنادق الأوروبية ، وتحت أبسط الصرائف البدوية ، وإلى جانب أبدى الخيم الصحراوية ، فتمكنت من ملاحظته ملياً في قاعة عرشه ، ومكتب قصره ، وغرفة نومه ، وفراش مرضه ، في مختلف أيام آلامه وافراحه . . .

ونظراً إلى كل ما لاحظته في هذه الظروف المتنوعة ، خلال تلك السنين الطويلة ، علمت بأنه كان يمتاز بخصال ثمينة جداً ، تجعله وجعلته عظيماً بكل معنى الكلمة .

انه كان ذكياً ، حاد الذكاء ، ومرناً خارق المرونة . كان يتمتع بحيوية شديدة ، وفعالية لا تعرف الكلل . وكان نادر المثال في روح المثابرة وفي شيمة التعقيب . وفوق كل ذلك ، كان يحمل في طيات جنبه وطنية حارة عميقة ، تدفعه إلى العمل في سبيل الوطن بدون انقطاع ، وتجعله مستعداً لتضحية كل ما هو عزيز عليه ، عند الاقتضاء .

إن اجتماع هذه الأوصاف والمزايا في نفس الملك فيصل ، جعل حياته مثالاً رائعاً للتطور الدائم ، والتقدم المستمر ، والارتفاع السريع ، كان كل يومه أحسن من أمسه بدرجات كبيرة ، فأصبح البون بين بداية حياته السياسية ونهايتها شاسعاً جداً . وكان

من سوء حظ الأمة العربية ، أن شعلة حياته انطفأت في الوقت الذي كـانت شخصيته السيـاسية وصلت فيـه إلى أقصى درجات النضـوج وأشد حـالات التـوهّـج . . . وفي الوقت الذي اصبحت فيه الأمة أحوج ما تكون إلى خدماته . .

حقاً أنه كان ذكياً ، حاد الذكاء ؛ يتفهم ويتمثل القضايا المتنوعة بسرعة كبيرة ، وينفذ إلى دقائق الأمور وخفاياها بصورة تثير الاعجاب .

إنه كان مرناً ، خارق المرونة : يتكيف بسرعـة كبيرة ، وفق مقتضيـات الأحوال والظروف ، من الوجهتين المادية والمعنوية .

فإذا ما رأيته على مائدة أوروبية ، خلته رجـلاً عريقـاً في الحياة الاريستـوقراطيـة الغربية ، نشأ منذ نعومة أظفاره على أدق تقـاليد البـلاطات الملكيـة . وإذا شاهـدته في خيمة بدوية ، خيل اليك أنك أمام رجل لم يفارق البادية ، فلم يأخذ بادنى نصيب من متارف المدنية .

إن شخصيته البدوية ـ ومقدرته العشائـرية ـ تجلت أمـامي على أوضـح الصور ، لأول مـرة ، في ظل بيت شعر مكشـوف الجـوانب ، أقيم بـالقـرب من محـطة السكـة الحـديـديـة في درعـا : لقـد جلس الملك فيصـل القـرفصـاء ، بـالـرغم من مـلابسـه العسكرية ، وأخذ يحادث الشيـوخ المجتمعين حـوله بلهجـة بدويـة صرفـة ، بأوضـاع بدوية بحتة ، كأنه واحد منهم ، ولا يختلف عنهم أبداً : كانت كل كلمة من الكلمات التي يلفظها ترافق حركة أو إشارة من يده ، أو رأسه ، أو عينـه ، أو جذعـه ، أو منها جميعاً . وكانت يده ـ على وجه أخص ـ لا تنقطع عن الحركة والاشـارة ، بصور شتى ، وكانت هذه الحركات والاشارات تزداد اتسـاعاً وارتساماً بفضـل العصا الصغيـرة التي كان يمسكها ، ليستعين بها على التعبير عن أفكاره خلال الحديث ، تعبيراً مجسماً . فانـه كـان يوجـه العصـا تـارة إلى اليمـين وطـوراً إلى اليسـار ، تـارة إلى الأعـلى وطـوراً إلى الأسفل ، وكان يحركها في بعض الأحيان على الأرض ، وطوراً يرميهـا من يده بـوضع خـاص ، ثم يعود ويتنـاولها بـوضع آخـر . . . كل ذلـك تمشيـاً مـع سيـاق الكـلام ، ومقتضيات الحديث ، والشيوخ من حوله يصغون إليه بانتباه عميق ، كأنهم مسحورون بأطواره وأحاديثه . وعنـدما يجيبـون على اسئلتـه ، يبدأون الكـلام بقولهم « والله يـا بو غازي . . . » .

ولكني رأيته بعد شهرين من ذلك التاريخ في أحـد الفنادق الايـطالية الفخمـة ، يبدو للناظرين كأمير أوروبي ظريف ، يجـذب الأنظار بلبـاقته النـادرة وأناقتـه الممتازة . وقد سمعت الكثيرين من نزلاء الفندق ـ من رجال ونساء ـ يتهامسون أو يتحادثون عنه

باعجاب عميق : « ما أظرفه !.. ما أنبله !.. ان آثار النجابة والأصالة تبدو على محياه بكل وضوح .. حقاً ، إنه أمير ممتاز !.. » إني رأيت كل ذلك رأي العين ، ولذلك لم استغرب عندما قرأت بعد مدة ـ ما كتبه عنه بوانكاره ، في مجلة العالمين الفرنسية ، بعد انفكاكه من رئاسة الجمهورية ، احتجاجاً على فكرة سفر الملك فيصل إلى انكلترة : « نحن نعرف أنه يتمتع بشخصية جذابة ساحرة ، فعسى أن لا يؤثر في أصدقائنا الانكليز هناك ، تأثيراً يؤدي إلى تعكير صفو العلاقات القائمة بينهم وبيننا .. » .

إن خصال هذه الحياة الغربية العالية ، من ظرافة ولباقة وأناقة ، قد اشتدت وتقوت وتكاملت عند الملك فيصل على الدوام ، لكنها لم تجرده عن شخصيته البدوية في يوم من الأيام . فكانت تلك الشخصية تعود إلى الظهور كلما اقتضت ذلك الظروف والأحوال . وقد سمعته يقول مراراً ـ في سورية والعراق ـ « أنا لم أطلب العرش للراحة أو الصيت والابهة ، بل طلبته واطلبه للعمل والخدمة فإذا لم أجد مجالاً للخدمة التي أصبو إليها ، لا أتردد أبداً عن ترك العرش والعودة إلى البادية » .

*

إني لا أزال أذكر ما حدث في أول مائدة بدوية شاركته فيها . وكان ذلك في « صريفة كبيرة » ، بين أحياء العمارة في العراق . كانت المائدة بدائية وبدوية بكل معنى الكلمة : على صينية كبيرة القطر ، تل من الأرز الكثير الدهن ، وعليه خرفان سمينة . ولم يكن هناك من آلات الأكل شيء غير الملاعق المعدّة لشرب اللبن . جلس الملك فيصل على الأرض ، ببشاشته المعهودة ، وشمرّ أردانه إلى كتفه ، وأخذ يتناول الطعام على عادة البدو تماماً : مد يده إلى الخروف ، وقطع اللحم بأصابعه الطويلة ، وبعد ذلك أخذ يملأ كفه بالأرز ، ثم يعصره عصراً يؤدي إلى سيلان الدهن من بين الأصابع ، وطفق يأكل بشهية وبساطة ، كأنه لم يأكل طول حياته على أسلوب غير هذا الأسلوب . أما أنا ، فقد حرت في ما يجب عمله في هذا الوضع للوهلة الأولى . ثم أخذت استعمل الملعقة مقام السكين اقطع اللحم بطرفها الحاد . واستعنت بما تذكرته عن طريقة طعام أهل الصين : وصرت أدفع بالملعقة مقداراً من الأرز على الخبز المرقق ، ثم أدفع عليه اللحمة المقطوعة . وتوصلت بهذه الصورة إلى تناول الطعام دون أن ألوّث يدي وأصابعي بالدهن أو اللحم ، على الرغم من حرماني من الشوكة والسكين .

كان الملك فيصل قريباً مني ، لا يفصل بيني وبينه الا رجل واحد . ولاحظت أنه تتبع حركاتي هذه بشيء من الاهتمام . وعندما شاهد الطريقة التي ابتكرتها ، قال لي مبتسماً :

دبرتها !؟

وانصرفت أنا إلى الأكل ، مع شيء من الارتياح ، لتغلبي على المشكلة التي جابهتني على هذا المنوال . غير أن ارتياحي هذا لم يدم طويلاً لانني شعرت ، بعد مدة قصيرة ، بقطعة كبيرة من اللحم المدهن تنقض على قفا يدي ، بكل حرارتها وسمانتها ، فتفسد عليّ كل الجهود التي كنت بذلتها . . . انه كان قطع هذه اللحمة ، ورماها فجأة على ظهر يدي المشغولة بدفع الأرز على الخبز المرقق ، وانطلق ـ في الوقت نفسه ـ يقهقه قهقهة عالية ، ويقول :

ـ عود نفسك يا شيخ !

*

« عوّد نفسك ، يا شيخ ! » هذه العبارة التي ألقاها عليّ في الظرف الذي ذكرته آنفاً ، إنه كان يعمل بها على الدوام ، ويعوّد نفسه جميع الأعمال الملائمة لجميع الظروف . . .

ولم تنحصر آثار هذه المرونة التي كانت تمكنه من التكيف مع مقتضيات الظروف والأحوال ، بالأمور المادية وحدها ، بل كانت تشمل الأمور المعنوية أيضاً : فانه كان شديد المرونة في سياسته الداخلية والخارجية ، وسريع التكيف مع ما تقتضيه الظروف المتتالية ، كما كان شديد المرونة وسريع التكيف في حياته المادية .

وهذه المرونة الشديدة ، كان يمكن أن تصبح من النقائص التي تضر بالصالح العام وتعيق التقدم والنجاح . . . لو لم تكن مشفوعة بخصلتين مهمتين : شدة الحيوية ، وحرارة الوطنية .

إن سياسة « خذ وطالب » التي وضعها لنفسه ولدولته ـ والتي أوصلت العراق إلى أوج رفعته ـ كان يمكن أن تصبح سياسة مضرة ، لو لم تحمل نفس فيصل الكبيرة طاقة لا تنضب من روح النشاط والمثابرة؛ ولو لم تؤجج في اعماق صدره سعيراً من الوطنية الخالصة . . .

إن هذه السياسة المرنة ، كان يمكن أن تؤدي إلى « الاكتفاء بما تمّ أخذه » وإلى « التقاعس عن طلب المزيد منه » . . . لو لم تحركه على الدوام . . . هذه الوطنية الطامحة التي لا تكتفي بالنزر الذي وصل إلى اليد ، بل تبقى تطالب بما وراء ذلك وتصبو إلى الأتمّ فالأتمّ على الدوام . . . هذه الوطنية الجامحة لا تتخدر أبداً بشعور الفوز النسبي الذي احرزته ، بل تواصل العمل في سبيل الوصول إلى الغاية القصوى

التي تصبو إليها ، وتعتبر كل خطوة من خطوات الفوز مقدمة للخطوات التالية ومقفزاً للوثوب إلى الأمام . . .

لقد رضخ فيصل الأول مراراً إلى الضرورات الخارجية تارة وإلى الضرورات الداخلية طوراً ، ولكن رضوخه هذا لم يكن في يوم من الأيام من نوع القنوط والاستسلام ، بل كان من قبيل الوقفة التي تساعد على تكثيف القوى والاستجمام ، استعداداً للكفاح الجديد ، والجهود الجديدة ، وفق خطط محكمة تمام الأحكام .

إنه ما كان يقنط من مرارة الخيبة ، ولا كان يسكر من حلاوة الفوز . وما كان ينفك عن الايمان بالفوز ، حتى في أشد ظروف الخيبة ؛ وما كان ينقطع عن النزوع إلى الفوز الأعظم ، حتى خلال أبهج ساعات النجاح .

كان مؤمناً بمستقبل الأمة العربية ، ومتحمساً نحوها بحب خالص عميق .

واستطيع أن أقول : إن حجر الزاوية في بناء شخصية فيصل الفذة ، كان هذه الوطنية العميقة . فإن جميع خصاله العقلية والخلقية ـ من ذكائه الحاد إلى حيويته الشديدة ـ ما كانت لتستطيع أن تحقق ما حققته من النهوض والتقدم بالعراق ، لو لم تكن كلها راضخة لقيادة هذه الوطنية الحارة ، ومدفوعة بقوة تلك الوطنية على الدوام . . .

وطنية الملك فيصل . . . كم وكم لي من الدلائل والشواهد على عمقها وقوتها! . . .

أنا لا أرى مجالاً لاستعراض تلك الدلائل والشواهد في هذا المقام . غير أني أرى من الضروري أن اسجل هنا واحدة منها ، لأظهر عمق تلك الوطنية وشدتها ، بكل وضوح وجلاء :

طلبني يوماً وقت العصر ، فذهبت لفوري إلى البلاط . وعندما وصلت إلى باب القصر ، علمت بأنه يتجول في الحديقة ، فتوجهت إلى جهة الشط ، لملاقاته هناك . وبعدما تقدمت قليلاً في ذلك الاتجاه ، رأيته من بعد ، متجولاً مع جماعة من حاشيته على السدة . وعندما لمحني ، خلال تلفتاته ، غيّر اتجاهه بغتة ، وأخذ يتقدم نحوي ونحو القصر ، بخطى سريعة . وعندما التقينا في منتصف طريق السدة ، صافحني ، ثم وجه إليّ بعض الاسئلة السريعة : « كيف حالك ؟ كيف خلدون ؟ امه ؟ أخته ؟ » وبعد ذلك واصل السير نحو القصر بخطى واسعة وسريعة ، دون أن يقول شيئاً . . . .

وظهر لي بوضوح عندئذ أنه كان مشغول البال بقضية مهمة ، يريد أن يحدثني

عنها ، ولكنه لم يشأ أن يذكر شيئاً منها بحضور أحد من رجال حاشيته . ولذلك بقي صامتاً إلى أن وصلنا القصر ، ودخلنا القاعة الكبيرة ، واختلينا فيها .

جلس على كرسي في أقصى زاوية القاعة ، وأشار إليّ بالجلوس إلى الكرسي الذي بجانبه ، ثم خفض بصره نحو منضدة السجائر التي تقع بيننا ، ووقف في هذا الوضع مدة من الزمن ، وقفة من يريد أن يجمع شتات أفكاره ، وينظم عناصر حديثه . . . ثم رفع رأسه بغتة ، وهزه هزاً خفيفاً ، بوضع من اتخذ قراراً خطيراً ، وأخذ يتكلم : بدأ الحديث بلفظ كلمة « غازي » ، ثم كرّر هذه الكلمة ـ حسب عادته عندما يتكلم عن شيء خطير ـ « أقول : غازي » . ولم يكد يلفظ العبارات الأولى من حديثه ، حتى تبينت كل المسألة ، بكل ما فيها من خطورة وتعقيد :

غازي ، ابنه وولي عهده ، غازي . . . إنه كان قد تركه هناك في الحجاز منذ بداية الثورة ، تحت رعاية جده الملك حسين . ولكنه بعد أن استقرت الأمور في العراق ـ رأى من الضروري أن يجلبه إلى بغداد ، ليشرف على تربيته وتعليمه بنفسه ، وينشئه التنشئة التي يتطلبها مستقبله . ويظهر أن البعض ممن كانوا ساهموا في تعليم الملك فيصل نفسه ، أرادوا أن يتولوا تعليم غازي ، ولكنهم لاحظوا بأنه لا يفهم ما يُلقى عليه من الدروس . وما نقلوه إلى الملك فيصل في هذا الصدد ولّد في نفسه خوفاً من أن يكون في ذكاء غازي شيء من النقص ، وحمله على التفكير في الأمر بصورة جدية .

« تعرف يا ساطع ، بأني أحب أسرتي ، وأحب ابني غازي ، وأحب أن أؤسس أسرة مالكة . . . ولكني أحب أمتي أكثر من أسرتي وأكثر من غازي . . . فإذا كان الأمر حقيقة كذلك ، وإذا كان غازي لا يتصف بالذكاء اللازم لولي عهد وملك ، أقول : إذا كان غازي لا يخلو من غباوة ، فأنا سوف لا اتردد في العمل بما يحتمه عليّ الواجب الوطني . سأجمع مجلس الأمة ، وسأقول : إني اجعل الأمة في حل من ولاية عهد ابني ، وأترك لها الحرية التامة في تقرير ما يجب عمله في هذا الشأن . . . » .

قال ذلك ، بصوت مختنق ، ولكنه مملوء باداء العزم والحزم . ثم كرّر : « أحب ابني ، ولكني أحب امتي أكثر من ابني . . فعليّ أن أقوم بواجبي نحوها ، قبل كل شيء . . . » .

ولقد أصغيت إلى حديثه هذا ، بسكون تام وبتأثر عميق .

أذكر أنني كثيراً ما جوبهت باستشارات من بعض الآباء والأمهات عن بعض المشاكل والمسائل المتعلقة بأولادهم خلال حياتي التربوية الطويلة . غير أني لا أذكر أن واحدة منها بلغت من الخطورة مبلغ خطورة هذه الاستشارة . .

إنني لم أكن قد رأيت الأمير غازي - حتى ذلك اليوم - إلا مرة واحدة . فقلت للملك فيصل : مع الأسف انني لم أخالطه إلى الآن مخالطة تمكّنني من الحكم في الأمر حكماً قاطعاً . ومع هذا استطيع أن أقول : إنني لم ألاحظ على سحنته وشكل جمجمته ، ما يدل على نقص عقليّ فيه .

وبعد هذه المقدمة ، سردتُ عليه بعض المعلومات العامة : إن علماء النفس والتربية يقسمون « التأخر » الذي يلاحظ عند الأطفال إلى نوعين أساسيين : النوع الأول هو التأخر الذي ينتج عن التأخر في الدرس والتعلم . والنوع الثاني ، هو التأخر الذي ينجم عن نقص طبيعي في القابليات الفكرية . إن النوع الأول مما يمكن تلافيه تلافياً تاماً ، بتدابير تربوية وتعليمية خاصة ، بعكس النوع الثاني الذي لا تمكن معالجته معالجة تامة . يلوح لي أن حالة الأمير غازي ، تنطبق على النوع الأول : إنه تأخر في الدرس - المدرسي منه والطبيعي - بالنسبة إلى عمره . ونتج عن ذلك نقص في قواه الفكرية الراهنة . وهذا مما يمكن تلافيه بسهولة . ومع ذلك ، أنا أقول هذا ، دون أن أؤكده . فاسمحوا لي أن أواجهه ، وأفحصه عدة مرات ، قبل أن أعطي حكماً قاطعاً في الأمر . .

إن ايضاحاتي هذه بسطت على قلبه شيئاً من الطمأنينة وأزالت عن وجهه علائم التوتر والانقباض . ومع هذا ، بعد الاصغاء إلى ما قلته اصغاء المرتاح المتفائل ، عاد إلى تخوّفه فقال : « ولكنني اريد أن أتأكد من الأمر . أدرُس المسألة جيداً ، وقل لي رأيك النهائي . لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي . فكّر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

قال ذلك وانتصب في كرسيه ، وانتهزت أنا فرصة هذا الانتصاب ، للنهوض والانصراف . وعندما قام يصافحني مودعاً ، قال لي بلهجة ملحة ، كلها جد وحزم :

« أعرف ، يا ساطع ، انك رجل صريح تقول كل ما تعتقد به بدون مواربة . . . غير أني أرجوك أن لا تخرج عن ديدنك هذا في هذه المسألة : لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

ودّعته بعد أن طمأنته على ذلك . وقبل أن أخرج من الباب ، سمعته يكرر مرة أخرى : « قلت لك يا ساطع ، لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

*

ليس هنا مجال للبحث عما تم بعد ذلك . غير أني أرى من الواجب عليّ أن أصرح بأنني عدت إليه بعد عدة أيام اطمئنه على صدق تخميني الأول ، وأؤكد له أن عدم فهم غازي لما القي عليه من دروس ، لم يتأتّ من نقص في قابلياته الفكرية ، بل

نتج عن تأخره في الدرس والمخالطة تأخراً شاذاً ، بحكم حياته السابقة ، وأن تلافي ذلك يتطلب السير على خطة محكمة ، بوسائط خاصة ، بواسطة معلمين ومربين مجدين ويقظين . .

إني لا أزال أذكر الفرح الذي تملكه عندما سمع مني هذا الحكم ، والحماس الذي أظهره في تطبيق الخطة التي اقترحتها لتعليم غازي وتربيته . .

غير أني لا أزال أذكر ـ في الوقت نفسه ـ رنين صوته الذي كان يكرر على مسامعي : « لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالأمة ، فكر بالوطن . . . » .

وشاءت الظروف أن أتولى ادارة الآثار القديمة ، بعد ارتحال فيصل الكبير ، وأن أتوصل إلى إظهار واحياء بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد ، من بين المباني المضافة إليه والأقذار والأنقاض المتراكمة فيه ، واعادة بعض قاعاتها إلى ما كانت عليه قبلاً . وفكرت عندئذ ، بتخصيص قاعات ذلك القصر القديم ، لعرض مخلفات هذا الملك العظيم .

وعندما كنت أفكر هناك في كيفية توزيع وعرض الأشياء والصور ، على جدران هذه القاعات وخزاناتها عرضاً يمثل حياته ومآثره أحسن تمثيل ، كم وكم مرة قلت في نفسي :

ولكن كم وكم له من المآثر التي لا يمكن أن تظهر على الصور ، ولا أن تتمثل بأشياء ! . .

لو لم يُخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية . . .

« لو لم يخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية . . » هذه عبارة ارتسمت بطبيعة الحال في أذهان الكثيرين ، منذ وقائع سنة العشرين ، وحملتهم على التساؤل : « ماذا كان يحدث عندئذ في سورية بوجه خاص ، وفي سائر البلاد العربية بوجه عام ؟ » .

إن ما حدث في العراق من التقدم السريع في جميع ميادين الحياة العامة - بفضل جهود الملك فيصل - يحمل الكثيرين على الرد على هذا السؤال بجواب مقرون بالتأسف الشديد والتلهف العميق . . لأنهم يذهبون إلى أن سورية كانت تنال على يده تقدماً كبيراً يفوق التقدم الذي ناله العراق ، كما أن التقدم الذي يحدث في سورية على يده بهذه الصورة ، كان من شأنه أن يؤثر في أوضاع سائر البلاد العربية تأثيراً أعمق وأشمل من التأثير الذي أحدثه في العراق . .

وأما أنا ، فأرى غير هذا الرأي ، لأن ما أعلمه عن سجايا الملك فيصل ونزعاته الأصيلة من ناحية ، وعن عقلية الانكليز والفرنسيين وسياستهم من ناحية ثانية ، وعن أوضاع العراق وسورية في تلك الحقبة من التاريخ ، ونزعات أهليهما من ناحية ثالثة . . يحملني على القول بأن الملك فيصل ، لو بقي في سورية بعد وقائع ميسلون لما استطاع أن يقوم بخدمات تماثل الخدمات التي قام بها في العراق .

أولاً : لأن عقلية الانكليز المنتدبين على العراق تختلف عن عقلية الفرنسيين المنتدبين على سورية اختلافاً كلياً ، كما أن السياسة التي يسير عليها الانكليز في حكم الشعوب بوجه عام تختلف عن السياسة التي يتبعها الفرنسيون في هذا المضمار اختلافاً جوهرياً .

فإن الانكليز قوم عمليون . انهم يستطيعون أن يعينوا منافعهم بصورة واضحة ويحددوا مطالب بحدود قاطعة . كما أنهم يسعون إلى معالجة هذه المنافع والمطاليب بصورة مجردة عن الهوى والعاطفة . إن تجاربهم السابقة في حكم الشعوب والسيطرة على البلاد ، لا سيما في شمال أمريكا وجنوب أفريقيا ، علمتهم بوضوح وجلاء مضار التشدد والتصلب من جهة ، وفوائد التساهل والتفاهم من جهة أخرى ، فاكسبتهم بذلك مرونة سياسية كبيرة في تنظيم علاقاتهم بالبلاد التي تقع ضمن نطاق مصالحهم الخاصة .

إنهم قد يخطئون في موازنة المنافع والمغانم التي تنجم عن كل خطة من الخطط التي يضعونها ، ولكنهم لا ينفكون عن إعادة النظر في هذه الموازنة من حين إلى حين . كما أنهم ـ إذا أفهموا غلطهم ـ لا يترددون في تغيير خطتهم ، دون أن يتركوا لعواطفهم مجال التأثير في الخطط التي يتبعونها .

ولهذه الأسباب كلها ، فإن سياسة التساوم المستمر والتفاهم التدريجي التي تتمثل بدستور « خذ وطالب » الذي وضعه فيصل العظيم كان يمكن أن تنجح مع الانكليز ، وأن تأتي بثمرات بالغة في البلاد التي تقع تحت نفوذهم .

غير أن الفرنسيين ـ بعكس ذلك تماماً ـ قوم خياليون واندفاعيون . إنهم لا يستطيعون أن يحددوا منافعهم ومطالبهم بحدود واضحة ، ولا أن يجردوا سياستهم من تأثير الهوى والعاطفة . . .

والتجارب التي مرت عليهم في حكم الشعوب والبلاد ، لم تكسبهم شيئاً من المرونة في هذا المضمار ، لأنهم لم يخسروا احدى مستعمراتهم من جراء ثورة أهاليها ـ كما حدث للانكليز في أمريكا الشمالية بعد الحرب الاستقلالية ـ ولم يضطروا إلى تجربة سياسة التفاهم بصورة فعلية ـ كما حدث للانكليز في افريقيا الجنوبية ، بعد الحروب البويرية ـ ولذلك ظلت سياستهم تستلهم خططها من تجاربهم الجزائرية والمراكشية ، وظلوا لا يعرفون معنى للحكم غير « الحكم المباشر » ولا يتصورون لوناً من السيطرة غير « السيطرة المطلقة » .

والنجاح الذي احرزه الفرنسيون في ادارة القطر الجزائري ادارة مباشرة ـ بعد اخماد الثورة التي جابهتهم في بادىء الأمر ـ شجعهم على المضي في هذه السياسة التقليدية ، وجعلهم يتمادون في اعتبار سياسة التساهل والتفاهم منافية للشرف العسكري وماسة بالكرامة القومية .

إن هذه الأوصاف التي تتصف بها السياسة الفرنسية في حكم الشعوب والبلدان

بوجه عام كان من الطبيعي أن تتجلى في سياستهم السورية أيضاً ، بشدة أعظم وبصورة أتم من كل ذلك ، لأن الآمال والأماني التي علقوها على سورية ، كانت قديمة ومعقدة وواسعة جداً ، كما أنها كانت ممزوجة بالشيء الكثير من الصوفية أيضاً ، إذ من المعلوم أن أصول هذه الأماني والآمال كانت ترجع إلى عهد الحروب الصليبية ودور الامارات اللاتينية ، واما دفة سياسة فرنسة في سورية ، فكان يشترك في توجيهها مطالبات الغرف التجارية الفرنسية وتنظيمات المحافل اليسوعية . وكل ذلك كان يبعدها عن مناحي التساهل والتفاهم بعداً كبيراً . . .

ولذلك كله أقول : إن الملك فيصل لو بقي في سورية بعد دخول الفرنسيين ، لما سارت الأمور كما سارت في العراق بوجه من الوجوه ، بل لحدث أحد الأمرين التاليين ، على وجه التأكيد :

إما أن يخضع الملك فيصل إلى مشيئة الفرنسيين خضوعاً تاماً ، فيفقد مكانته الشعبية وينزل إلى منزلة راجوات الهند أو سلاطين المغرب . . .

أو يختلف مع رجالهم اختلافاً كبيراً يحملهم في آخر الأمر على إخراجه من البلاد ، بعد مرور مدة من الزمن .

إن ما أعلمه عن شدة الشعور القومي الذي كان يختلج في جوانح الملك فيصل يحملني على استبعاد الاحتمال الأول ، وعلى القول بحتمية الاحتمال الثاني ويجعلني أجزم ـ على كل حال ـ بأن الملك فيصل ما كان ليستطيع أن يخدم سورية خدمة ذات بال ، لو بقي فيها بعد دخول الفرنسيين .

*

زد على ذلك أمراً آخر ، جديراً بالاعتبار في هذا المضمار :

إن المرحلة التاريخية التي كانت سورية قد اجتازتها حتى يوم ميسلون ، تختلف اختلافاً جوهرياً عن المرحلة التاريخية التي كان العراق قد اجتازها حتى ذلك اليوم ، كما أن الحالة النفسية التي كانت سائدة في سورية عند خروج الملك فيصل منها تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة النفسية التي كانت سائدة في العراق ، عند وصول الملك فيصل إليه .

فإن العراق خرج من الحكم العثماني ، من جراء الحروب التي حملت اعباءها الجيوش البريطانية والهندية وحدها ، والادارة التي تأسست في مختلف أنحاء العراق ـ عقب الحرب العالمية ـ كانت ادارة احتلالية أجنبية بحتة ، لا أثر للحكم الوطني فيها .

والعراق كان قد أصبح لذلك تابعاً لبريطانيا ـ وبتعبير أصح : تابعاً لحكومة الهند التابعة لبريطانيا ـ تابعيةً صريحةً ، بصورة فعلية . فكل ما كان يُعمل هناك بعد ذلك لنقل أعمال الادارة ومسؤولية شؤون البلاد من الأيدي الاحتلالية إلى الأيدي الوطنية ـ ولو بصورة تدريجية ـ كان خليقاً بالاعتبار « خطوة إلى الأمام » في سبيل الاستقلال المنشود . وكان ينزل منزلة « نيل حق فعلي » بالنسبة إلى الأحوال الراهنة .

ولهذا السبب ، فإن سياسة « خذ وطالب » التي سار عليها الملك فيصل في العراق ، كانت سياسة حكيمة بالنسبة إلى الأحوال القائمة فيه عند ذاك . فقد سار العراق ـ بفضل هذه السياسة ـ نحو الاستقلال الفعلي التام ، شيئاً فشيئاً ، إلى أن دخل في حظيرة عصبة الأمم . . .

وأما في سورية ، فإن الأمور كانت قد سارت على عكس ذلك تماماً . فإن البلاد السورية تخلصت من الحكم العثماني على يد جيش الثورة العربية ـ ولو بمساعدة الجيش البريطاني ـ فالادارة التي تأسست هناك كانت ادارة وطنية بحتة منذ البداية . وهذه الادارة تحولت بسرعة إلى حكومة وطنية منظمة ، تعمل تحت مراقبة مؤتمر يمثل الأمة . والبلاد أعلنت استقلالها بصورة رسمية ومارست هذا الاستقلال بصورة فعلية . فكل معاهدة يمكن عقدها مع فرنسة بعد ذلك كان لا بد من أن تأخذ شكل « تنازل عن بعض الحقوق المكتسبة » ، ولا بد من أن تصبح بمثابة « رجوع إلى الوراء » بالنسبة إلى الحالة الراهنة .

فما كان من الممكن أن يقال في سورية ـ والحالة هذه ـ « خذ وطالب » ، كما قيل في العراق ، لأن سورية كانت قفزت إلى ذروة الاستقلال منذ الحملة الأولى . وكانت أصبحت أمام مطالب الفرنسيين لا عروضهم . . .

فنستطيع أن نقول بكل تأكيد : إن كل معاهدة من المعاهدات التي اعتبرت في العراق من نوع « التقدم إلى الامام في سبيل الاستقلال » كانت تعتبر في سورية ـ في ذلك التاريخ ـ بمثابة « الانحدار نحو الاستسلام والعبودية » .

فما كان يمكن للملك فيصل أن يقوم في سورية بخدمة مماثلة للخدمات العظيمة التي قام بها في العراق ، ومن هذه الوجهة أيضاً .

لهذه الملاحظات كلها أقول : إن اخراج الملك فيصل من سورية غداة يوم ميسلون ، كان من الأمور التي نفعته ونفعت الأمة العربية منفعة كبيرة .

وأرى أنه يجب أن يُحمد الجنرال غورو على فعلته هذه ، لأنني اعتقد أنه خدم بها

القضيـة العربيـة ـ من حيث لا يقصد ولا يـدري ـ إذ أفسح امـام الملك فيصـل مجـالاً للعمل في بيئة ـ وتحت ظروف ـ أكثر مساعدة للعمل المثمر . فـاكسب العراق مؤسسـاً داهية ، واكسب الأمة العربية بطلاً مغواراً ، مثل فيصل العظيم[1] . .

(١) وقعت في المجلد العاشر من « الموسوعـة الفرنسيـة » الجديـدة على فقـرة تتعلق بالملك فيصـل ، كتبها « لويس لوفور » Louis Le Fur الأستاذ بكلية الحقوق في باريس .

وقد تولى الأستاذ المشار إليه كتابة فصل « الدولة والأمة » في الموسوعة المذكورة ؛ وعنـد الكلام عن « تـأثير الدولة في توحيد وتكوين الأمة » ذكر العراق والملك فيصل قائـلاً : « إن عملية تـوحيد الأمة بواسـطة الدولـة ، تجري أمام أعيننا في هذه البوتقة التي تسمى « العراق » : ملك ذو حزم وذكـاء ، استطاع أن يحقق ذلـك ـ بعض التحقيق ـ خـلال بضـع سنـوات . وهـذه الـواقعـة من الأمثلة التي يتجـلى بهـا إلى العيـان ، كيف أن « مجـرى الحوادث » قد يتغـير من جراء « تصـادف » يتعلق بطول أو قصـر عهد ملك من الملوك : فلو طـال العهد بـالملك فيصل ، لكان من الممكن أن يستفيد من « فترة تعب أو ضعف » قد تعتري فرنسة أو بريطانيا ، فينجح في خلق دولة عربيـة كبيرة ، تضم العـراق ، وفلسطين وسـورية ولبنـان أنظر : *Encyclopédie française*, tome 10 .

لقد كتب لوفور هذه الكلمة سنة ١٩٣٥ ، خلال هذا البحث العلمي البحت .

وعندما قرأت هذه الكلمة في هذه الموسوعة الكبيرة ، تذكرت حالاً ـ عن طريق التضاد ـ ما كـان قد كتبه رئيس جمهورية فرنسة السابق « بوانكارة » ، قبل ذلك بخمسة عشر عاماً : في مقالة نشرها في « مجلة العالمين » ، عقب يوم ميسلون ، قاصداً الملك فيصل : « بالون منفوخ ، انفش وزال » !

مع أن بوانكـارة كان من أكبـر رجال السيـاسة في فـرنسة ، وكـان ممن يمتازون بسعـة الثقافـة ، ورجاحـة العقل ، وقوة البيان ! . .

حـول انهيـار فرنسـة

- ١ -

إن أهم الحوادث التي حدثت منذ نشوب الحرب الحالية ، هي بلا شك « انهيار فرنسة »[٢] . .

في الواقع ، أن عدة دول أخرى سبقت فرنسة ، في وادي الانهيار خلال هذه المدة ، غير أن بعضها كان من الدول الحديثة ، وبعضها كان من الدول الصغيرة ، فاندحارها لم يؤثر في سير الحرب تأثيراً عميقاً . . .

أما فرنسة فقد كانت « العماد البري » للقوى المخالفة لالمانيا ، وجيشها يعتبر أبسل جيش على الأرض ، فكان من الطبيعي أن يؤثر اندحارها تأثيراً كبيراً في مجرى الحرب ، وأن يولد انعكاسات شديدة في الرأي العام ، في جميع أنحاء العالم . .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الدول التي اندحرت وانهارت خلال هذه الحرب ، قبل فرنسة ، لم تكن ذات علاقات هامة بالبلاد العربية ، في حين أن فرنسة كانت ، منذ مدة طويلة ، أشد الدول علاقة بالعالم العربي من الوجهتين السياسية والثقافية . فكان من الطبيعي أن تكتسب انعكاسات هذا الانهيار - في الرأي العام العربي - شدة خاصة ، تتناسب مع شدة هذه العلاقات الثقافية والسياسية . .

ولذلك ، رأينا أن عدداً غير قليل من الكتاب العرب انبروا إلى نشر المقالات ونظم الأشعار ، حول هذا الانهيار . .

---

(٢) محاضرة القيت في نادي المثنى ببغداد ، سنة ١٩٤١ .

إن معظم الكتابات التي نشرت في هذا المضمار كانت « عاطفية » بكل معنى الكلمة ، كان أكثرها بمثابة مراثٍ ، تندب حظ فرنسة ، وتظهر أسفاً شديداً ، وحزناً عميقاً للكارثة التي حلت بها . ليس هذا فقط ، بل أن بعض أصحاب هذه الكتابات كان يغالي في الرثاء ، حتى لقد انتهى إلى درجة البكاء . . .

غير أن هذه المراثي قوبلت حالاً بمعارضة شديدة ، فقد حمل عليها بعض الكتاب فوراً ، حملات عنيفة ـ كيف يجوز لكاتب عربي أن يبكي على فرنسة متناسياً ما فعلته هي بالقسم الأعظم من البلاد العربية ؟ . . . كيف يجوز لمفكر عربي ، أن يأسف لما حل بفرنسة ، وهو يعلم أنها كانت من أهم العوامل التي أنزلت أكبر النكبات بالأمة العربية ، ولا سيما بعد الحرب العالمية ؟

وهنا احتدم الجدال بين الفريقين ، وحاول كل فريق أن يعبر عن عواطفه بمقالات حارة ، أودع فيها كل ما أوتي من قوة البلاغة والبيان . .

إنني من الذين يعتقدون بأن الكتابات العاطفية ، تعبر عن نفسية كتابها الشخصية ، وخوالجهم الذاتية ، فلا تتحمل المناقشة مناقشة علمية . .

غير أن أصحاب المراثي لم يكتفوا بإظهار عواطفهم هذه وتثبيتها ، بل أخذوا يدافعون عنها ويدعون إليها ، وحاولوا أن يدعموها ببعض الآراء والنظريات السياسية والاجتماعية . .

فإذا جاز لنا أن نسكت تجاه « العواطف الشخصية » فلا يجوز لنا أن نلتزم هذا السكوت تجاه الآراء والنظريات التي صارت تنشر لتبرير تلك العواطف . .

لقد قال بعضهم « يجب علينا أن نميز بين فرنسة الأدبية المتمدنة وفرنسة السياسية المستعمرة » . .

وقال آخرون « يجب علينا أن نفرق بين عمل الساسة وعمل الأمة كلها ، فلا يجوز لنا أن نعتبر الشعب الفرنسي مسؤولاً عن أعمال حكامه » . .

فلننعم النظر في الآراء التي تتضمنها مثل هذه الأقوال ، ولنفكر جيداً : هل يمكن التمييز بين فرنسة الأدبية المتمدنة وفرنسة السياسية المستعمرة تمييزاً حقيقياً ؟ .

إنني لا أعتقد بذلك أبداً . . لأن الأدب الفرنسي نفسه لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام ، وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص .

بل بعكس ذلك ، انبرى لخدمة تلك السياسة ، بكل الوسائل الممكنة . وقد كتب الأدباء عدداً لا يحصى من المقالات والخطب والأشعار ، والقصص والروايات ،

التي تمجّد الاستعمار ، وتزينه إلى النفوس ، وتحثّ على الاستعمار وتحببه إلى القلوب . .

إن دلائل ذلك تظهر للعيان من خلال جلسات الاكاديمية الفرنسية أيضاً ، لأن هذه الندوة الأدبية العليا قد حرصت كل الحرص على أن تختار بعض أعضائها من بين رجال السياسة والجيش ، كما اختارتهم أحياناً من صناديد الاستعمار ، وهؤلاء لم يتجردوا من نزعاتهم السياسية والاستعمارية ، عند دخولهم قاعة اجتماع تلك الندوة حتى أنهم لم يترددوا أحياناً في اتخاذ تلك القاعة منبراً لإسماع آرائهم الاستعمارية في خطب أدبية رائعة . . .

ولعل أقرب وأوضح الأدلة على ذلك ، كان انتخاب الماريشال (ليوتي) لعضوية الاكاديمية المذكورة . ومن المعلوم أن هذا الرجل يعتبر من أكبر رجال الاستعمار ، فقد لقبه الفرنسيون بلقب « الافريقي » ـ تقليداً لما كان قد فعله الرومان في القرون الأولى عندما خلعوا مثل هذا اللقب على « اسجيبيون » بعد تمكنه من تدمير قرطاجنة . . .

أجل أن الاكاديمية الفرنسية انتخبت الماريشال « ليوتي » لعضويتها ، أفتدرون ماذا كان موضوع « خطبة القبول » التي دشنت حياته الاكاديمية ـ وفقاً لتقاليد الندوة الأدبية المذكورة ؟ إن موضوع الخطبة كان « الاستعمار » . . . اقرأوا الخطبة المذكورة تجدوا أنها قطعة أدبية رائعة ، في مدح الاستعمار وتمجيده . . إنها تشرح فوائد الاستعمار المادية والمعنوية ، بأسلوب حار بليغ ، وتدعو إلى « الايمان » بضرورته لحياة فرنسة .

ولكن كيف ذلك ؟ لأن الاستعمار مصدر هام للقوة والثروة ، ومنبع لا ينضب للجيش ، وساحة تدريب وتكوين للقواد . . ولأن الأمم المحرومة من المستعمرات ، إنما يُكتب عليها الركود والجمود الروحي . . .

أعتقد أن هذه الخطبة ، من أبرز الأمثلة والأدلة على تداخل الأدب والاستعمار وتشابكهما ، فلا يجوز لنا أن نقول ـ والحالة هذه ـ بوجوب التمييز بين « فرنسة الأدبية المتمدنة وفرنسة السياسية الاستعمارية » ، بوجه من الوجوه .

وأما إذا قيل لي : إن القصد من التمييز المبحوث عنه ، هو « تقدير الأدب الفرنسي » في حد ذاته ، « بقطع النظر عن السياسة الفرنسية والاستعمار الفرنسي » . . . إذا قيل لي ذلك ، فأنا أعترف بصحة هذا الرأي ، غير أنني أقول بلا تردد : إذا كان الأمر كذلك فلا يبقى داع أو مبرر للرثاء ، لأن الأدب الفرنسي ظل خارجاً عن حدود النكبات . . فإن النكبة التي نحن بصددها إنما حلت بالدولة

الفرنسية وبالجيش الفرنسي ، لا بالأدب الفرنسي . . لأن انهيار الجيش لا يستوجب انهيار الأدب ، والانحدار في ميادين الحرب والسياسة لا يستلزم الانحدار في ميادين الأدب والثقافة . . .

إنني أستطيع أن أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل فأقول : إن مثل هذه النكبات قد لا تخلو من فائدة للأدب ، لأنها قد تكوّن منبتاً خصباً للانتاج الأدبي ، فإن الآلام والأتراح تكون ـ بوجه عام ـ أفعل من الأفراح في اثارة العواطف ، وتوليد الأدب الرائع . . .

وعلى كل حال ، أن نظرية التمييز بين فرنسة الأدبية وفرنسة الاستعمارية لا تستند على أساس قويم ، من هذه الوجهة أيضاً .

وأما القول بوجوب التفريق بين الشعب والحكام ، وعدم اعتبار الشعب مسؤولاً عن أعمال الحكام . . فقول غريب جداً ، ولا سيما بالنسبة إلى فرنسة ، التي تفخر وتباهي بالديمقراطية والجمهورية ، والادارة الشعبية . . .

أنا لا أنكر أن الحكام قد يستطيعون في بعض الأحوال أن يجروا شعبهم إلى الاتجاه الذي يريدونه ، غير أنني اعتقد بأن ذلك الاتجاه لا يمكن أن يستمر طويلاً ، إذا لم يأت موافقاً لنزعات الشعب ، وإذا لم يجد هوىً في أمياله النفسيّة . .

ومن المعلوم أن « الاستعمار » لم يكن من الحادثات العارضة في تاريخ فرنسة . . بل أن تاريخ الاستعمار هنالك طويل جداً . حتى أن بدء الاستعمار الفرنسي للبلاد العربية نفسها يعود إلى أكثر من قرن . فإن فرنسة بدأت حملتها على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وقد مضى على ذلك التاريخ قرن كامل مع عقد من السنين . . ولقد غيرت فرنسة « نظام حكمها » ـ خلال هذه المدة ـ أربع مرات ، بل خمس مرات . انتقلت من الملكية إلى الجمهورية فالامبراطورية ، ثم عادت إلى الجمهورية ، والآن أخذت تجرب شكلاً جديداً من نظام الحكم . . ومع هذا ، فإنها لم تنحرف عن سلوكها الاستعماري طوال هذه المدة ، وخلال هذه النظم المختلفة . لقد أتمت استعمارها للجزائر بين شتى الانقلابات السياسية ، واستولت على تونس سنة ١٨٨٢ ، وبسطت حمايتها على مراكش سنة ١٩١١ ، واستولت على سورية وأتمت استعمارها للمغرب الأقصى بعد الحرب العالمية . . وقد توالت خلال هذه المدة الطويلة عدة أجيال ، ونشأ وترعرع في غضونها عشرات الأحزاب ، وتولى الأمر فيها عشرات وعشرات من الحكومات المتضاربة النزعات . . . ومع كل هذا ، لقد ظل « العمل الاستعماري » هو هو ، دون أن يتوقف أو يتغير من جراء تبدل نظم الحكم ، أو تعاقب الحكومات . . وتوالي الأجيال . . فلا يجوز لنا إذن أن نسلم بأن « الاستعمار

الفرنسي » من أعمال حكام فرنسة ، وبأنّ الشعب الفرنسي يجب أن لا يُعتبر مسؤولاً عنه . . .

- ٢ -

هذا ، ومما يسترعي النظر أن معظم ما كتب في رثاء فرنسة وفي الدفاع عن ذلك الرثاء - في اللغة العربية - يُظهر آثار افتتان غريب بها - ومغالاة شديدة في اعتبارها أرقى شعوب الأرض ، على الاطلاق . . .

فقد قال أحد الكتاب : « إن المساواة في العدل الاجتماعي لم تكد تتحقق في أمة من الأمم في كل ادوار التاريخ إلّا في فرنسة » . . . كما ادعى كاتب آخر أنه « لم يثر ثائر على الاستعمار ، في مشرق أو مغرب إلّا وفي روحه جذوة من النار التي أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب » .

وقال أحدهم : « لا أعرف فرداً قد ربي فيه الوازع الشخصي بمثل ما ربي في الرجل الفرنسي » .

وقد صاح كاتب قائلاً : « إن قوة الالمان فيض من قوتك يا باريس ! » كما خلع كاتب آخر على فرنسة سلسلة نعوت خارقة مثل « مبعث النور والحرية ومهد الاختراعات » .

إن معظم هذه الدعاوى تخالف الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما أن ما تبقى منها ينطوي على مغالاة صارخة . .

فإن التاريخ يذكر لنا عشرات الثورات التي قامت قبل ثورة باريس المعلومة . . والفرنسيون أنفسهم يعترفون بأنهم تأخروا كثيراً في تحقيق المساواة في العدل الاجتماعي ، كما أن معظم مفكريهم يشكون بمرارة ضعف الوازع الشخصي في نفوس مواطنيهم ، ويحسدون بصراحة بعض الأمم من جراء الوازع الشخصي المبحوث عنه . . .

وأما نعت فرنسة بـ « مبعث النور ومهد الاختراعات » واعتبار الفرنسيين أرقى شعوب الأرض على الاطلاق . . فدعوى إن كان يمكن الدفاع عنها في دور من ادوار التاريخ ، فقد أصبحت من القضايا التي لا يمكن التسليم بها في الدور الذي نعيش فيه الآن . . .

لقد كان الفيلسوف الانكليزي الشهير « هربرت سبنسر » قد فنّد الأسطورة القائلة « بتفوق الفرنسيين » على جميع شعوب الأرض في « المدخل » الذي كتبه لعلم الاجتماع قبل نحو سبعة عقود من السنين ، وانتقد انتقاداً لاذعاً ، المبالغات المفرطة

التي كانت تلقب فرنسة بلقب « محررة الأمم » والتي كانت تدعي بأن اندراس باريس يعني انطفاء مشعل المدنية .

أنا لا أشك في أن مثل هذه المبالغات التي استثارت انتقادات الفيلسوف المشار إليه عندئذ ، قد أصبحت أشد بعداً عن الحقيقة الآن ، وأجدر بالانتقاد الشديد في هذا الزمان . . ولست أنكر أن فرنسة كانت أرقى بلاد العالم في دور من ادوار التاريخ ، هذا الدور هو العهد الذي يمتد بين أواسط القرن السابع عشر وأواخر الثامن عشر . وأعرف أن البعض من المفكرين الذين استعرضوا تاريخ أوروبة استعراضاً فلسفياً ولاحظوا تتابع دور الاقطاع ودور الانبعاث ، قد سموا الدور الذي نحن بصدده باسم « الدور الفرنسي » . . غير أنني أعرف أيضاً أن ذلك الدور قد مضى ، وانطمس في اغوار التاريخ ، منذ مدة طويلة لأن حالة أوروبا وحالة العالم تبدلت تبدلاً هائلاً خلال القرن التاسع عشر ، فلم تستطع فرنسة أن تحتفظ بمنزلتها السابقة بين هذه التبدلات والتقلبات العالمية الهائلة .

أنا لا أود أن أقول ان فرنسة تأخرت منذ ذلك الحين ، إنما أود أن أقول : إن أمماً ودولاً أخرى قامت ، ونهضت وتقدمت بسرعة هائلة . . منذ ذلك العهد ، انها أخذت تتسابق مع فرنسة تسابقاً عنيفاً في جميع ميادين التقدم والرقي . . وقد لحقتها في معظم الميادين ، بل سبقتها في بعض الميادين . . لقد خرجت الحضارة العصرية ، من سيادة فرنسة المعنوية ، منذ مدة غير قصيرة ، ففقدت فرنسا بذلك مكانتها السابقة ، بصورة قطعية . .

مع هذا فإنها لا تزال تتمسك بالشهرة التي كانت قد اكتسبتها سابقاً ، على الرغم من حرمانها من التفوق الذي سبق لها أن احرزته في هذا المضمار . .

إنني أشبه منزلة فرنسة وشهرتها المبحوث عنها بمكانة « الوجوه والأعيان » الذين يتمتعون في بعض المجتمعات بشهرة المكانة التي امتازوا بها قبلاً ، دون أن يعترفوا بسمو المكانة التي أحرزها غيرهم بكل جدارة واستحقاق . . .

وكما أن بعض الناس يتأثرون ـ عادة ـ بالشهرة السابقة دون أن يلتفتوا إلى « الحالة اللاحقة » . . يظهر أن بعض كتابنا ظلوا تحت تأثير شهرة فرنسة السابقة دون أن يُنزلوا هذه الشهرة على حكم الأحوال الحالية ويزنوها بالموازين الجديدة .

ـ ٣ ـ

ولنترك مسائل المدح والأطراء والرثاء جانباً ، ولنعد إلى أصل القضية ونتساءل :

« ما هي أسباب انهيار فرنسة ، هذا الانهيار السريع ، الذي يكاد يكون فجائياً ؟ . . . » .

إن أبسط وأسهل الأجوبة التي تخطر على البال رداً على هذا السؤال هو أن فرنسة لم تكن مستعدة للحرب .

وفي الواقع أن هذا التعليل قد سيطر على الأذهان والأقلام سيطرة غريبة ، فإن معظم الذين كتبوا ، وعالجوا هذا الموضوع ، عللوا الانهيار « بعدم الاستعداد » . ليس هذا فقط ، بل أن بعضهم جعل من « عدم الاستعداد » هذا ، دليلاً على حسن الطوية ، ونبل الغاية .

فقد قرأت بين ما قرأته من الكتابات حول هذا الانهيار في المجلات العصرية ، هذا الحكم البتار : « ما غُلبوا إلاّ لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر إلا في السلم ولا تتسلح إلاّ بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، في حين أن الديكتاتورية التي يعادونها لا تفكر إلا في الحرب ، ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب . . » .

أنا لا أستطيع أن أسلم بصحة هذا الرأي ، بالرغم من احترامي الشخصي لصاحبه . فلنستعرض الأعمال العسكرية والسياسية التي قامت بها فرنسة منذ انتصارها في الحرب العالمية المنصرمة . إنها استولت على مراكش من جهة ، وعلى الشام من جهة أخرى ، وجردت الحملات العسكرية على مختلف النواحي في أوروبة وآسية وافريقية ـ حاربت الأتراك ، حاربت العرب ، حاربت الروس بعد الهدنة ، اشتركت في إشغال قسم من البلاد الالمانية وأقدمت بمفردها على الاستيلاء على قسم آخر منها ، ساعدت بولندا وتشيكوسلوفاكيا في تسلحهما وتنظيمهما العسكري ، وحاكت أحابيل الحلف الكبير والحلف الصغير ، وأخذت تدير دفة السياسة الأوروبية بصوت مسموع ومكانة مرموقة . . . وأنفقت مبالغ طائلة في سبيل تشييد « خط ماجينو » على طول الحدود الالمانية . ورصّعت البلاد السورية والمراكشية بعدد كبير من المواقع العسكرية . . فكيف يجوز ـ والحالة هذه ـ أن نقول إن فرنسة لم تفكر إلا في السلم ؟ ولم تتسلح إلا بالعهود والمواثيق ؟ العهود والمواثيق . . . ؟ فهل احترمتها فرنسة ـ مثلاً ـ في سياستها السورية ؟ ألم تكن أعمالها هناك ـ مِن أولها إلى آخرها ـ سلسلة حركات تتلخص بالقسوة والعنف ، دون أن تتقيد بالمواثيق والمواعيد ؟ . . .

فالعامل الأصلي في الانهيار ، لم يكن عدم الاستعداد للحرب .

فعلى من يخامره أدنى شك في هذا الباب ، أن يرجع بذاكرته إلى أوائل الحرب

الحالية ويتذكر ما كان يسمعه وما كان يقرأه من الآراء والأخبار حول قوة فرنسة العسكرية .

كلنا كنا نسمع كل يوم مقارنات طويلة عريضة ، بين خط ماجينو وخط سيغفريد ، مقارنات تنتهي بوجه عام بالمدح والاطراء للأول وبالقدح والازدراء بالثاني . كل يوم كنا نسمع ونقرأ أخباراً شتى كلها تؤكد تفوّق المدفعية الفرنسية على المدفعية الالمانية وتبرهن على رجحان الطيران الفرنسي على الطيران الالماني .

ولا حاجة للبيان أن مصادر هذه الأخبار والدعايات كلها كانت فرنسية . . .

وكل شيء يدل على أن فرنسة كانت « تعتقد » بأنها مستعدة للحرب أتم الاستعداد ، وبأنها ستنتصر بدون ريب . وإلا لما أقدمت على إعلان الحرب ، بل لأوعزت إلى بولندا بوجوب التساهل مع المانيا في قضية دانزيغ والممر ، ولانكبّت بعد ذلك على اتمام استعداداتها . غير أنها لم تفعل ذلك ، بل بالعكس شجعت بولندا على المقاومة ، وانضمت إلى بريطانيا العظمى في توزيع « الضمانات » ذات اليمين وذات اليسار ، إلى القريب والبعيد ، ممن يطلبها أو لا يطلبها من الدول . . . فلا مجال للشك في أن فرنسة كانت مغرورة بقوتها ومخدوعة في أمر قوة عدوتها .

ومن المعلوم أن القوة من الأمور النسبية ، فالقوي بالنسبة إلى شيء ، قد يكون ضعيفاً بالنسبة إلى شيء آخر ، والغلط في التقدير في مثل هذه الأحوال ، قد ينتج عن غلط في تقدير القوة نفسها ، أو عن غلط في تقدير القوة المقابلة لها ، أو عن غلط في كلا الأمرين . إن سير الوقائع يدل دلالة قطعية على أن فرنسة اخطأت خطأً فاحشاً في تقدير قوة المانيا . .

فيجدر بنا أن نتساءل إذاً لماذا اخطأت فرنسة كل هذا الخطأ الفاحش في تقدير قوة عدوتها ؟ .

إنني أعزو سبب ذلك إلى انخداع فرنسة بأقوال اللاجئين الموتورين الذين كانوا قد هربوا من المانيا أو طُردوا منها . . . وقد فتحت فرنسة أبوابها في وجه هؤلاء ، وأرادت أن تستفيد منهم ، ومن تشكياتهم ودعاياتهم ، في اثارة الرأي العام العالمي ضد المانيا ، واستمالته نحو فرنسة . . في حين أن القسم الأعظم من هؤلاء اللاجئين كانوا من الطفيليين الموتورين ، الذين لا يرتبطون بأي وطن من الأوطان العتيدة ارتباطاً قلبياً ، ولذلك أخذوا يصورون المانيا على غير حقيقتها . صوروا النظام الجديد الذي قام في المانيا كمجموعة تعسفات بربرية ، تقوم بها جماعة من الطغاة ، فيكرهها جميع الناس . قالوا إن كل الناس ينفرون من النازية نفوراً شديداً ويستعدون للثورة عليها استعداداً كبيراً .

ولقد سمعنا كلنا انعكاسات هذه الأقوال والمدّعيات : ألمانيا على أبواب ثورة داخلية ستندلع نيرانها قريباً ، فتجرف الهتلرية جرفاً عنيفاً . . كل شيء رديء هناك . حتى المعادن التي تصنع منها الأسلحة ، حتى الاسمنت الذي يستعمل في بناء الحصون ، لم تكن من الأنواع الجيدة . . .

لقد فتح الفرنسيون أبواب بلادهم لمئات الآلاف من هؤلاء الموتورين على مصاريعها ، كما فتحوا آذانهم لسماع دعاواهم ودعاياتهم ، وصاروا يصدقون كل ما يقولونه ، ولا سيما أن ما يقوله هؤلاء كان موافقاً لما يتمناه الفرنسيون كل التمني . .

وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن ذلك كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انخداع فرنسة في تقدير قوة عدوتها وأودت بها إلى الانكسار الفظيع . .

فقد أفاضت الجرائد كثيراً في ذكر أعمال الناس الذين سُموا باسم « الرتل الخامس » وبحثت كثيراً عن الدور الذي لعبه أولئك الذين كانوا يقومون بدعايات متسترة ـ على حساب ألمانيا ـ ويهيئون بذلك الجو النفسي الملائم لعمل الجيوش الجرارة . .

غير أنني أقول ـ إن عمل ارتال اللاجئين في فرنسة لم يكن أقل تأثيراً من عمل الارتال الخامسة في النتيجة النهائية . فإن ارتال اللاجئين الموتورين أضرت فرنسة من حيث كانت تريد خدمتها . وخدمت ألمانيا من حيث كانت تحسب أنها تضرها . . لأن دعاياتها خدعت الفرنسيين خدعة قوية في أمر قوة ألمانيا ، وجرتهم إلى الحرب والاصطدام مع قوى تفوق قواهم تفوقاً عظيماً . . وأدت بذلك إلى انخذالهم ذلك الانخذال المريع .

ـ ٤ ـ

والآن ، بعد أن حدث ما حدث فظهرت الحقائق للعيان ، تبين بصورة لا تترك مجالاً للشك أن الجيش الألماني الذي هاجم الجيش الفرنسي ، كان يفوقه تفوقاً عظيماً من جميع الوجوه المادية والمعنوية . كان يفوقه تفوقاً بارزاً من حيث العدد والتجهيزات والانضباط والقيادة . . . وبتعبير أقصر ، من حيث الكمية والكيفية . . .

من المعلوم أن ألمانيا كانت جُرّدت من السلاح ، وحرمت حق التسلح ، بعد الحرب العالمية ، فظلت محرومة من الأسلحة ومن معامل الأسلحة ، مدة تزيد على عشر سنوات . فعندما بدأت تتسلح مؤخراً ـ سراً في بادىء الأمر ، وعلناً في نهاية الأمر ـ لم تتقيد بشيء من القديم ، بطبيعة الحال . . . فاستحضرت أنواعاً جديدة من

الأسلحة الحربية ، وابتكرت أنواعاً جديدة من أساليب الحرب . ويظهر أنها كانت تمكنت من ابتكار أنواع عديدة ، فاستفادت من كل نوع منها في احدى صفحات حروبها المتوالية ـ في بولندة ، وفي النروج ، وفي هولندة . وعندما جاء دور هجومها على فرنسة استطاعت مفاجأتها بوسائط حربية وبأساليب حربية أخرى أفسدت على الجيش الفرنسي جميع الخطط التي كان قد وضعها . . .

زد على ذلك أن الجيش الألماني الذي انقضّ على الجيش الفرنسي بمثل هذه الوسائط الحربية الجديدة ، كان متفوقاً عليه تفوقاً كبيراً من حيث العَدد أيضاً . وإذا بحثنا عن أسباب هذا التفوق العددي ، استطعنا أن نذكر أموراً كثيرة منها مساعدة الموقع الجغرافي ، وسير صفحات الحرب ، وكثرة وسائط النقل ، ونظام خطط التعبئة . . وما أشبه ذلك من العوامل والأسباب ، غير أننا ـ مع كل ذلك ـ نضطر إلى التسليم ، بأن السبب الأصلي يعود إلى كثرة النفوس ، إذ من المعلوم أن نفوس ألمانيا تناهز ضعف نفوس فرنسة ، فلا غرابة والحالة هذه أن يتفوق جيشها على جيش فرنسة ، تفوقاً كبيراً ، من حيث العدد أيضاً . .

ومما يجدر بالانتباه ، أن قضية النفوس كانت من القضايا التي أخذت تشغل بال الفرنسيين وتثير مخاوفهم منذ مدة غير يسيرة . فإن الاحصاءات الموجودة تدل على أن نفوس فرنسة كانت مساوية لنفوس ألمانيا سنة ١٨٦٥ ، غير أنها لم تزد بعد ذلك خلال سبعين سنة ـ أي حتى سنة ١٩٣٥ ـ إلا ثلاثة ملايين ، في حين أن نفوس ألمانيا زادت خلال المدة نفسها أكثر من ثلاثين مليوناً .

ولا شك في أن قضية النفوس وحدها ، ليست من القضايا الحاسمة في سير التاريخ ، فإن التاريخ يرينا أمثلة كثيرة على تغلب بعض الأمم الصغيرة على بعض الأمم الكبيرة ، بالرغم من قلة عدد نفوسها . غير أن مثل هذه الحوادث لا تحدث عادة إلا عندما يكون فرق عظيم بين الأمتين من حيث مستوى الحضارة والثقافة ، وشدة الروابط الاجتماعية وقوة الايمان القومي . . واما إذا كانت الامتان متقاربتين من هذه الوجوه الثقافية والاجتماعية ـ كما هي الحالة في فرنسة وألمانيا الآن ـ فمن الطبيعي أن تكتسب قضية النفوس خطورة خاصة ، وتؤثر في سير التاريخ تأثيراً كبيراً . .

وقد انتبه عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين في فرنسة إلى الخطر الذي أخذ يحدق ببلادهم من جراء سير نفوسها ؛ حتى أنه ظهر بينهم من قال : يجب أن نعلم بأننا في كل سنة من السنين التي تمر علينا على هذا المنوال نخسر معركة ، ونفقد جيشاً دون أن نُقدم على حرب ودون أن نشعر بهذه الخسارة ، في حين أن ألمانيا ـ بعكسنا ـ تربح في كل سنة معركة وتحصل في كل سنة على جيش جديد ، دون أن تُقدم على

حرب ، ودون أن تضحي شيئاً في سبيل ذلك . . .

إلا أن الأمور ظلت على حالتها هذه ، بل زادت خطورةً من جراء التدابير المتخذة في ألمانيا في هذا السبيل . لقد وضعت ألمانيا عدة قوانين واتخذت عدة تدابير ، لضمان تكاثر النفوس ـ زيادة على سيره المعتاد ـ في حين أن فرنسة لم تخرج عن ساحة النقد والبحث في هذا المضمار ، ولم تقدم على وضع قانون يلتفت إلى هذه القضية الحيوية بعض الالتفات إلا قبل اندلاع نيران الحرب الحالية . .

كان رجال السياسة في فرنسة يأملون أن يتغلبوا على المشاكل والمخاطر التي تنجم عن مسألة النفوس بوسيلتين غير مباشرتين :

الأولى ـ التجنيد من المستعمرات ، وتقوية الجيش الوطني بجيش المستعمرات .

الثانية ـ تكوين اتفاقات سياسية وعسكرية تربط فرنسة بكتل كبيرة قوية ، تكفي لتلافي نقص النفوس الأصلية ، بل تضمن التفوق على أعدائها من جهة النفوس أيضاً .

غير أنه مما لا مجال للشك فيه ، أن الجيوش التي تُجمع من أهالي المستعمرات وتساق إلى ساحات الحروب سوقاً ، وتُحمل على خوض غمار الحرب دون أن تشعر بدافع باطني يحبب إليها الإستقتال ، إن مثل هذه الجيوش لا يمكن أن تتكافأ والجيوش الوطنية التي تعمل وتحارب بشعور وطني وإيمان قومي . . .

وأما الاتفاقات السياسية فقلما تستقر على حال ، فلا تستطيع أن تضمن الاستقبال في جميع الأحوال ، لأن منافع الدول والأمم معضلة إعضالاً شديداً ، ومتشابكة تشابكاً كبيراً . فإذا رأت دولة ما أن من مصلحتها أن تتفق مع دولة أخرى في بعض الظروف ، فقد ترى من مصلحتها أن تلتزم الحياد ، أو أن تتفق مع غيرها عند تبدّل تلك الظروف . إن نظرة بسيطة إلى تقلب الاتفاقات السياسية ، وتطور التكتلات الدولية ، تكفي لاظهار ذلك للعيان . . .

هذه ايطاليا ، لقد انضمت إلى فرنسة وانكلترة ضد روسية في حرب القرم ، ثم اتفقت مع ألمانيا ضد فرنسا بعد استيلاء الأخيرة على تونس . ومع هذا ، لقد انضمت إلى اعداء ألمانيا خلال الحرب العالمية ، وأخيراً عادت واتفقت مع ألمانيا ضد اعدائها في الحرب الحالية . . .

وهذه انكلترة ، لقد حاربت فرنسة في عهد نابليون ، ثم اتفقت معها ضد روسيا في حرب القرم ، ثم اتفقت مع اليابان فشجعتها على محاربة الروس بعكس ما

عملته فرنسة عندئذ ، ثم اتفقت مع فرنسة وروسية ضد ألمانيا في الحرب العالمية ثم حاربت روسيا بعد انتهاء الحرب المذكورة ، وأخيراً بذلت الجهود الجبارة للاتفاق معها ، قبيل الحرب الحالية ، وكذلك الأمر في علاقات انكلترة مع تركية فإنها كانت على الدوام يوماً لها ويوماً عليها . . .

ونحن نستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة على ذلك . . . مما يدل على أن مثل هذه الاتفاقات لا توجِد موازنات مستقرة ، بين تطور المنافع وتقلب الاتجاهات . . .

ولذلك كله ، سارت الأمور خلال الحرب الحالية ، سيراً غريباً بالرغم من الاتفاقات والضمانات السابقة . وقد أدى هذا السير إلى بقاء الجيش الفرنسي ـ في آخر الأمر ـ وحيداً إزاء الجيش الألماني في ساحات الحرب . . . فازداد بذلك تأثير التفوق العددي زيادة هائلة . . .

*

هذا ، ويجب علينا أخيراً أن نشير ـ حينما نبحث عن أسباب انهيار فرنسة ـ إلى سبب آخر ، سبب يجب أن يُعطى الموقع الأول بين سلسلة الأسباب ، بل يجب أن يُعتبر السبب الأصلي ، بل هو علة العلل . . .

هذا السبب هو علائم بلبلة الآراء وفوضى النزعات التي كانت تسود فرنسة ، إزاء مظاهر وحدة الكلمة وتراصّ الصفوف التي كانت تميز ألمانيا . . .

لقد دخلت ألمانيا الحرب ، وهي متحدة الكلمة ، تسير وراء زعيم واحد تثق به ثقة لا حد لها ، وتتجه نحو هدف عام يعرفه الكل ، ويقدسه الجميع . . .

في حين أن فرنسة ، كانت منقسمة على نفسها في معظم أمورها . وقد بلغت فيها الشهوات الحزبية ، درجة تكاد تتغلب على الفكرة الوطنية . وتعددت الأحزاب تعدداً لا مثيل له في التاريخ ، فلم يبق حزب قوي يستطيع أن يضمن الأكثرية ويدعم الحكومة حتى بالاتفاق مع حزب ثان ، فأصبح من المحتم على كل حكومة تسعى إلى تسيير دفة الأمور أن تتفنن في اجراء ترتيبات معقدة بين عدة أحزاب متخالفة . . .

وبما أن مثل هذه الترتيبات المعقدة تكون معرضة للتغيير السريع بتقلب الظروف ، فقد أصبح التوازن الحكومي شبيهاً بالأعمال البهلوانية التي يقوم بها اللاعبون على الحبال . . .

ولا حاجة للبيان ، أن تعدد الأحزاب وتنازعها على هذا الوجه كان يفسح مجالاً

واسعاً لدسائس النفعيين ، ويزعزع ثقة الشعب بالحكومات ، ويسيء إلى سمعتها إلى حد كبير . . .

وإذا كان تسيير دفة الشؤون بين هذه النزعات المتخالفة ، من الأمور الممكنة في الأحوال الاعتيادية ، فلا شك في أنه يصبح من المستحيل خلال الأزمات الحربية ، لأن الحرب تحتاج إلى أعمال منسقة تنسيقاً تاماً ، لا سيما في هذا العهد الذي أصبحت فيه الأعمال الحربية غير مقتصرة على الجيوش المحاربة وحدها ، وغير منحصرة بساحات القتال وحدها ، بل شاملة جميع أبناء الوطن وجميع أقسام البلاد . . . فالبلبلة في الآراء والفوضى في الأعمال ، من الأمور التي لا يمكن أن تلتئم مع ضرورات الحرب بوجه من الوجوه . . . .

فإذا أقدمت أمة ما على الحرب وهي متبلبلة الآراء ، فلا بد من أن تتعرض إلى كوارث ونكبات . . .

وهذا ما حدث فعلاً في فرنسة ، لأن البلبلة التي كانت تضطرب في نفوس أبنائها حين بدء الحرب ، ازدادت يوماً فيوماً ، من جراء سير الوقائع من جهة ، وبتأثير اذاعات الألمان من جهة أخرى . ولا شك في أنها كانت علة العلل في أمر الانهيار . . .

*

وهنا مسألة هامة تتطلب التفكير والاهتمام .

إن الحالة المبحوث عنها ، من تعدد الأحزاب وبلبلة الآراء لم تكن من الأمور الشاذة في فرنسة ، بل هي من الأمراض الاجتماعية المزمنة ، التي كانت تنخر روح فرنسة منذ مدة غير يسيرة . ومع هذا فإنها لم تؤدِّ في الماضي إلى انكسار وانهيار ، لأن الأحزاب كانت تنبذ ـ عادة ـ منازعاتها عندما تشعر بالخطر الخارجي ، وتسرع إلى الاتحاد والتكتل ، عندما يدعوها إلى ذلك داعي الوطن كما حدث فعلاً في الحرب العالمية . . .

لماذا لم يحدث ذلك في هذه المرة ؟ لماذا لم تتحد الأحزاب أمام الخطر الهائل الذي أحدق بفرنسة ، منذ نشوء الحرب الحالية ؟ .

لا شك في أن ذلك لا يمكن أن يعلل إلا بالقول : إن داء الحزبية كان قد اشتد إلى درجة أصبح معها لا يتأثر من ضرورات الحرب ، وان روح الفردية كانت قد تقوّت إلى درجة تحوّلت معها إلى أنانية مفرطة ، تتغلب على الروح الاجتماعية والروح الوطنية . .

غير أن هذا التعليل لا يحل المسألة حلاً مرضياً ، فيجب علينا أن نتساءل ـ بعد هذا التعليل أيضاً ـ « لماذا اشتدت روح الحزبية إلى هذه الدرجة ، ولماذا تقوت فكرة الفردية إلى هذا الحد ؟ » .

إنني أعتقد أن الدعايات الشديدة المستمرة التي قامت في طول فرنسة وعرضها منذ عدة سنوات ، ضد النظام النازي والفاشيستي ، لم تخلُ من التأثير الشديد في هذا الباب . إن تلك الدعايات كانت تستهدف ـ في حقيقة الأمر ـ تبغيض ألمانيا وايطاليا ، غير أنها كانت تهاجم ، قبل كل شيء ، « النظام الجديد » الذي اختارته لنفسها كل واحدة من هاتين الدولتين ، مهاجمة عنيفة وذلك من وجهة تأثيره في الحرية الفردية في الدرجة الأولى . ولذلك أخذت الدعايات المذكورة تستمد قوتها من « فكرة الحرية » و « نزعة الضمير » المنتشرة في البلاد ، فصارت تزدري حتى « روح التكاتف والتراصّ » و « دعوة التوحد والتضحية » التي يتضمنها هذان النظامان . فإن الكتّاب والخطباء كلما أرادوا تزييف النازية ومهاجمتها لوّحوا أمامها بعلم « الحرية المطلقة والفردية التامة » دون أن ينتبهوا إلى التأثيرات والأضرار التي قد يحدثها ذلك في داخلية البلاد ونفسية الناس . وعلى هذا الوجه تقوّى الداء وتأصل ، وصار الناس يمجدون « الحرية » تمجيداً مطلقاً ولو أدت إلى الفوضى ، وينفرون من « التوحد » ولو أصبح ضرورياً لحياة الأمة ، ويسترسلون في « الفردية » ولو تحولت إلى أنانية فتاكة . . .

وفي الواقع أن محاذير ومخاطر هذه الأمور لم تبق خافية على أنظار جميع الفرنسيين ، بطبيعة الحال . فقد ظهر بين رجال الفكر والسياسة مَن شعر بالأخطار التي ستنجم عن استمرار هذه الأحوال ومن أخذ يعارض الإفراط في فكرة الحرية فيدعو إلى لم الصفوف وتوحيد الكلمة ، حتى ظهر من يحمل بعض الحملات على روح الفردية والأنانية . . . غير أن الدعايات التي ذكرناها آنفاً ، كانت قد أثرت في النفوس تأثيراً عميقاً حتى صار الناس ينظرون إلى كل محاولة من هذا القبيل ، كضرب من ضروب النازية أو الفاشية ، كما أخذوا يتهمون معتنقي مثل هذه الآراء بخدمة الأعداء وخيانة الوطن . . .

وعبثاً حاول بعض الكتّاب والمفكرين أن يرشدوا الناس إلى سواء السبيل بقولهم : « يجب أن نكره النازية من حيث سياستها الخارجية وحدها ، فلا يشمل كرهنا لها جميع أعمالها وجميع خصائصها . . . ومهما كرهنا النازية من وجهة سياستها الخارجية فيجب أن لا ننكر أنها قامت بأعمال هامة في سبيل الاصلاحات الداخلية ، والتنظيمات الشعبية . إن بعض تلك الأعمال الداخلية لجديرة بالاعجاب ، وحَرِيّة بالاقتداء . . . » غير أن أصوات هؤلاء المفكرين ضاعت بين صرخات الصارخين ، الذين ظلوا يهاجمون النازية من جميع الوجوه باسم

الحرية . . . ويستخفون بجميع مبادئها وأعمالها باسم الفردية . . .

ولذلك استمرت في فرنسة الأمراض والنزعات السياسية والأخلاقية النفسية التي شـرحناهـا آنفاً ، خـلال الحرب أيضـاً . . . ولا شك في أن هـذا الاستمرار كـان أهم الأسباب التي أدت إلى الانهيار .

*

ومن الغريب أن دعايات « الحرية والفردية » المفرطة ، التي كانت قد انتشرت في فرنسة ، فأودت بها إلى الانهيار ـ كما أسلفنا ـ أثرت تأثيراً عميقاً في آراء عدد غـير قليل من كتّاب العرب ، فراح البعض منهم يردد تلك الدعايات بحماس شديد ، حتى بعد ظهـور أضرارهـا الفادحـة للعيان ، في الـويلات والنكبـات التي جرتهـا عـلى فـرنسـة نفسها . .

فقد نشر أحد الكتّاب المشهورين في إحدى المجلات المصريـة الشهيرة ، سلسلة مقالات حول فـرنسة ، بعـد انهيارهـا ، ابدى فيهـا من الآراء ، ما يستـوقف النظر ، ويتطلب النقاش . .

فقد وصف الكاتب المحترم في مقالاته هذه الحالة النفسية التي كانت قـد وصلت إليها فرنسة قبل الحرب الحالية بكلمات صريحة ، فكتب ـ في جملة مـا كتبه في الأقسـام المختلفة من مقالاته المذكورة ـ الكلمات التالية :

« كانت شهوة السياسة الحزبية في فرنسة أقوى من الفكرة الوطنية . . . امتلأ الفرنسي بنفسـه ، وأصبح الفرد كل شيء ، يؤثر نفسه بكل شيء ، يؤثـرها بـأعظم حظ ممكن من اللذة ويجنبهـا أعظم حظ ممكن من الألم . . استجاب الفرنسي لـداعي العقل الفـردي ، أكثر ممـا استجاب لـداعي العقل الاجتماعي » .

« قد رأى الفرنسي أن الحياة لم تُمنح للناس ليبذلـوها في الجهـود المضنية التي تنتهي إلى الفنـاء ، إنما مُنحت للناس لتكون عليهم نعمة ، ليستمتعوا بلذاتها وليتجنبـوا آلامها . . . فـرنسة آثـرت نفسها بالعافية واللذة ونعيم الحياة . . . » .

أنا لا آخذ على نفسي مسؤولية هذه الكلمات القاطعة ، ولا اشترك في إطلاقهـا وتعميمها على هذا المنوال . مع هذا أرى من الضروري أن نُنعم النظر فيها قليلاً . . .

إن هذه الصفات الأخلاقية ، وهذه النزعات النفسية ، هذه الفردية المفرطة التي لا تفكـر بشيء غير نفسهـا . . والتي تتجنب الجهود المضنيـة على اختـلاف أنواعهـا ، فتحاول أن تنال أعظم حظ ممكن من اللذة . . . والتي تؤثر نفسها على الدوام بالعـافية

واللذة ونعيم الحياة . . . كل من ينعم النظر في هذه الصفات ، يضطر إلى التسليم معي ، بأنها تدل على شيء واحد ، هو « التفسخ الأخلاقي » وتؤدي بطبيعة الحال إلى نتيجة واحدة ، هي « الانحلال الاجتماعي » .

غير أن الكاتب المحترم ، لا يقول بذلك أبداً بل بالعكس ، يرى في كل هذه الصفات والحالات ، أثراً من آثار التحضر والتثقف ونتيجة من نتائج الإمعان في الحضارة والثقافة . إنه يعلل كل واحدة منها بقوله : « إن الفرنسيين قد تحضروا وامعنوا في الحضارة » . و « مضت فرنسة في الحضارة إلى أقصى غاياتها » . . ويكرر ذلك مرات عديدة ، ويعتبر كل ذلك من نتائج « الحضارة والثقافة » الطبيعية . حتى أنه يقول بكل صراحة ما يأتي :

« إن أية أمة من الأمم تبلغ من الثقافة ما بلغته فرنسة ، وتسلك بالثقافة الطريق التي سلكتها فرنسة ، منتهية من غير شك إلى مثل ما انتهت إليه فرنسة . . . » .

ويزيد على ذلك قائلاً : « نحن بين طريقين : إما أن نستقبل الثقافة احراراً (يريد مثل ما تفعل فرنسة) وإما أن نستقبلها مقيدين » (يريد مثل ما تفعل ألمانيا) كما يقول أخيراً : « أما أنا فاختار الطريق الأولى ، وأقبل أن أتعرض لما تتعرض له الأمم الحرة من ألوان الخير والشر ومن اختلاف الخطوب » . . ويعلل اختياره هذا بنزوعه إلى الحرية حيث يقول : « إن الحياة الحرة . . خليقة بأن نشتريها بأغلى الأثمان » .

أنا لا أستطيع أن أشارك الكاتب المحترم في آرائه هذه . . أنا لا أسلم بأن الأحوال والصفات التي ذكرها « نتيجة طبيعية » للإمعان في الحضارة والثقافة ، كما لا أسلم بصحة رأيه في انحصار الأمر بين طريقين « لا ثالث لهما » .

والواقع أن حديثي هذه الليلة قد طال ، فلم يبق أمامي ـ مع الأسف ـ مجال للاسهاب في هذا المضمار . .

ومع هذا ، أرى من الضروري ، أن لا أنهي حديثي دون أن أناقش الكاتب المحترم قليلاً ، في كلمته الأخيرة .

« إن الحياة الحرة . . خليقة أن تشترى بأغلى الأثمان . . » إن سياق الكلام ـ في المقالات المذكورة ـ يدل دلالة صريحة على أن الثمن الذي هو موضع البحث هنا ما هو إلا « كيان الدولة » و « حياة المجتمع » . . . هل يجب علينا أن نسلّم بهذا القول ؟ هل يجوز لنا أن نقدّم « الحياة الحرة » على « كيان الدولة » وعلى مصالح المجتمع الحيوية » ؟ وهل يمكننا أن نضحي « الحياة الحرة » بتضحية حياة الدولة وكيانها ؟

أنا لا أرى داعياً لاطالة الحديث في الإجابة على هذه الأسئلة . مع هذا أرى من

المفيد أن أذكر كلمة قالها قبل الحرب العالمية ، أحد عظماء السياسة في فرنسة ، وكلمة أخرى كتبها أحد كبار الأدباء . .

في عهد وزارة بريان استعد الاشتراكيون لحمل الناس على اضراب عام ، يشمل عمال وموظفي السكك الحديدية ، ليشلوا جميع الأعمال والحركات في طول البلاد وعرضها . وعندما اطلعت الحكومة على أخبار هذه الاستعدادات اعتقدت بأن ذلك قد يؤدي إلى كارثة كبرى ، نظراً لما كانت تعرفه عن استعدادات ألمانيا ، ونظراً لاحتمال إقدامها على انتهاز فرصة هذا الاضراب العام ، للاستيلاء على البلاد استيلاء فجائياً . . فقررت الحكومة الفرنسية أن تتخذ تدبيراً حاسماً في هذا المضمار ، والتجأت إلى طريقة التجنيد ، جندت عمال السكك الحديدية قبل يوم الاضراب ، وأمرتهم بتسيير القطارات ، بصفتهم جنوداً وضباطاً . ومن المعلوم أن العامل حر في العمل أو الاضراب ، غير أنه يفقد هذه الحرية ـ بطبيعة الحال ـ عندما يصبح جندياً . . وهكذا استطاعت الحكومة أن تفسد على الاشتراكيين ترتيباتهم في هذا الباب ، وأن تحول دون تحقيق الاضراب العام ، الذي كانوا يستعدون له منذ مدة طويلة .

هذا التدبير سبب هياجاً عظيماً على الحكومة ، فأخذ المعارضون يقولون : « هذا إخلال باحكام الدستور ، وأنه تعدّ على حق الحرية . . » غير أن رئيس الحكومة رد على هذه الاعتُراضات قائلاً : « إن العمل الذي قمتُ به لا يخالف الدستور ، ولا يكوّن تعدياً على حرية الافراد . مع هذا أود أن أصرح من على هذا المنبر ، بأنني لو كنت أعلم بأنه مخالف للدستور ولحقّ الحرية ، لما احجمت عن القيام به . . لأنني أعتقد أن حياة فرنسة أغلى من الدستور ، وأثمن من حرية الافراد . . . » .

إن ساسة فرنسة الذين كانوا يحملون مثل هذا الاعتقاد قادوا بلادهم إلى النصر في الحرب العالمية المنصرمة . . وأما رجال فرنسة الجدد الذين فقدوا هذا الاعتقاد وصاروا يعتبرون هذه الأعمال ضرباً من ضروب النازية . . . فقد أوصلوا بلادهم إلى وادي الاندحار . . .

*

هذا وأذكر أنني كنت حضرت رواية في باريس قبيل الحرب العالمية ، عنوانها « الغرب » يصور مؤلفها ضابطاً من كبار ضباط البحرية الفرنسية يعيش مع راقصة مغربية تنحدر من عشيرة مراكشية . وكان للضابط أخ شاب مأخوذ بالآراء والنظريات المعارضة للخدمة العسكرية ، فيفرّ من الجندية . غير أن أخاه الضابط يتمكن ـ بعد سلسلة من الوقائع ـ من اقناعه واعادته إلى حظيرة الخدمة الوطنية . وهنا تقف المرأة

المغربية مدهوشة أمام خضوع الشاب لكلمات أخيه هذا الخضوع ، فتتساءل : « ألم يكن هذا الشاب حراً ؟ فكيف يخضع لأوامر الضابط كأنه كلب مطوق بالأغلال ، أو عبد يمتثل أوامر سيده الذي اشتراه بماله الخاص ؟ » .

أما الضابط فيبتسم لأقوال الراقصة المغربية . وعندما يختلي بها يقول لها ما مؤداه ـ « إن الحرية في نظرنا نحن الغربيين ، هي غير الحرية التي تقولون بها وتطلبونها أنتم الشرقيين ، الحرية في نظركم أن يرتدي المرء برنسه ، ثم يمتطي صهوة جواده ، فينطلق في الصحراء حيث شاء . . . أما نحن ، فلا نطلب تلك الحرية ، فإن كلاً منا يحمل في عنقه أغلالاً وأصفاداً . . أغلالاً وأصفاداً مصنوعة من ذهب معنويّ . . من ذهب العنعنات والتاريخ والواجبات . . . نحن نحب تلك الأصفاد بكل جوانحنا ، ونحمل تلك الأغلال بكل سرور . . نحن نبجل تلك الأصفاد والأغلال ، بل نقدسها كل التقديس . . » .

إن الجيل الذي يقول مثل هذه الأقوال ، قد قاد فرنسة إلى المجد والنصر ، وأما الجيل الذي عدل عن تقديس الأغلال الاجتماعية فأخذ يتمسك بالحرية المطلقة . . الجيل الذي ترك التساند الاجتماعي جانباً ، فأخذ يقدس الفردية . . هذا الجيل . . قد أوصل فرنسة إلى هذه النكبات . .

إنني أعتقد بأن هذه النتيجة يجب أن تكون درساً ثميناً لجميع شبان العرب . . فأنا أود أن يعرف المرء أن الحرية ليست غاية قائمة بنفسها بل هي واسطة من وسائط الحياة العالية . . والمصالح الوطنية التي تتطلب من المرء أحياناً تضحية الحياة والنفس لا بد أن تتطلب منه تضحية الحرية أيضاً في بعض الظروف . . .

إن كل من لا يضحي بحريته الشخصية في سبيل حرية أمته ـ عندما تقتضيه الحال ـ قد يفقد حريته الشخصية مع حرية قومه ووطنه . . . وكل من لا يرضى أن « يُفني » نفسه في الأمة التي ينتسب إليها ـ في بعض الأحوال ـ قد يضطر إلى « الفناء » في أمة من الأمم الأجنبية التي قد تستولي على وطنه ، في يوم من الأيام . . .

ولذلك ، انني أقول بلا تردد ، وعلى الدوام : الوطنية ، والقومية قبل كل شيء ، وفوق كل شيء . . . حتى فوق الحرية ، وقبل الحرية .

بين القوى المادية والقوى المعنوية(*)

إن الوقائع والحوادث الهائلة التي تتمخض عنها الحرب الحالية كل يوم ، تلقي ضوءاً جديداً على نواميس السياسة والاجتماع ، فتحمل الكثيرين من المفكرين على إعادة النظر في آرائهم السياسية وفي معتقداتهم الاجتماعية .

غير أن البعض منهم أخذوا يتسرعون في تفسير الحادثات الحالية على علاتها ، فصاروا يقولون : إن الحرب الحالية حرب مكائن ، تضطرم نيرانها بين الماديات والمعنويات ، وتعلن انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، وهي حرب مادية لا تعتمد على فضائل النفس وخصائص الروح ، بل تعتمد على سرعة الدواليب وقوة الانفجار في مكائن النقل والتدمير ، من سيارات وطيارات ، ودبابات ، وغواصات ، ومدافع ، وألغام ، وبارجات . . . ودارعات . . .

لا شك في أن هذه الوسائط المادية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً في الحرب الحالية ، ولا شك في أن دور هذه الوسائط المادية تعاظم وتفاقم بدرجة هائلة في الحرب الحالية ، بالنسبة إلى ما كان عليه في الحروب الماضية . فلا يخطىء من يقول لذلك إن هذه الحرب كانت ولا تزال حرباً ميكانيكية ، لا يُحرَز النصرُ فيها دون تفوق الميكانيكيات . .

غير أن هذه الحقيقة لا تعني غلبة الماديات على المعنويات ، بوجه من الوجوه . . . فلا يجوز لأحد أن يستدل منها على زوال أهمية فضائل النفس وخصائص الروح في تسيير الحرب ، لأن جميع هذه الوسائط الميكانيكية لم تكن مادية بحتة ، بل

(*) أذيعت في بغداد عام ١٩٤٠ .

أن كل نوع منها يخفي وراءه مجموعة هائلة من القوى المعنوية . . .

إن الدهشة التي تستولي على عقولنا ، عندما نسمع أخبار هذه الوسائط المادية ، من حصون ودبابات وطيارات وقنابل وقذائف وحاملات طائرات ، والغام ممغنطة . . . إن هذه الدهشة يجب أن لا تُنسينا القوى العقلية والنفسية التي تكمن وراء جميع هذه المكائن المادية ، فتسيرها نحو أهداف معينة ، وفق خطط معضلة ، وضعت بعد تأملات دقيقة . . عندما نسمع أخبار هذه الوسائط المادية الهائلة ، يجب أن لا ننسى العقول النظرية التي اخترعت أسسها ، والعقول العملية التي بحثت في طرق تطبيقها بما يلائم حاجات الحرب ، وطرق الاستفادة منها في سبيل غايات الحرب . . والعقول الادارية والاقتصادية التي عملت كل ما يلزم لإحضارها وانتاجها ، وقوة التدبير والتبصر التي عملت كل ما يلزم لتكديسها في الوقت اللازم وتوزيعها على المحلات اللازمة من جهة وتدريب الجنود والضباط والقواد على كيفية استعمالها من جهة أخرى . . . وروح الاقدام والشجاعة والتضحية التي تتجلى في تسيير كل واحدة منها . . وأخيراً ، وعلى الأخص ، روح الوطنية التي توحد أعمال وعواطف الملايين الذين يخدمون ويستخدمون هذه المكائن في خطوط القتال ووراءها . . . ولا سيما روح التنظيم التي توحد أعمال الملايين من المكائن والملايين من البشر وتسيّرها إلى اتجاه واحد . .

جرِّدوا هذه المكائن ، من دبابات وغواصات وطيارات والغام ، وقذائف . . . جرِّدوها من القوى المعنوية التي ذكرتها آنفاً ، تروا أنها تتحول في لمح البصر إلى كتل جامدة ، لا تعمل ولا تتحرك ، أو تنفجر انفجاراً أعمى فلا تخدم غاية من الغايات ، بل قد تخرب حتى المعامل والأيدي التي صنعتها وتمحو الرجال والأدمغة التي عملت لإحضارها . . . فإذا كانت هذه الوسائط المادية قد عملت أعمالاً هائلة ، ولا تزال تعمل أعمالاً محيرة . . . فما ذلك إلا لأن وراءها أدمغة مفكرة وعواطف هائجة . . تحركها وتسيّرها نحو غايات خاصة ، وفق خطط مدبرة ، وُضعت بعد تفكير شامل وتأمل عميق . . .

ولهذه الأسباب كلها ، نستطيع أن نقول بدون تردد : إن فضائل النفس ، وخصائص الروح لم تفقد أهميتها في الحرب الحالية ، بل أنها لا تزال من أهم القوى المسيّرة لها . .

لا شك في أن الخصائص النفسية التي كانت تكفي لضمان النصر في حروب السيوف ، لم تعد تكفي لذلك في حروب الدبابات ، والخصائص الروحية التي كانت تكفي لضمان النصر في حروب تستند على هجوم الخيّالة ، لا تكفي في حرب تستخدم

في الهجوم الدبابات والطيارات والمظلات . . فلا مجال للانكار أن الحروب الحالية تتطلب خصائص روحية من نوع جديد ، وفضائل أخلاقية من نوع خاص ؛ غير أنه يجب ألا يغرب عن البال ، أن أسس هذه الخصائص والفضائل لا تزال هي هي : روح الطاعة في الافراد ، وقوة التدبير في القواد ، وروح التضحية وفكرة الوطنية عند الجميع . . .

ومما يجدر بالانتباه ، بوجه خاص ، أن الخصائص النفسية التي تلعب دوراً هاماً في الحروب الجديدة هي الخصائص الاجتماعية بوجه عام . . هذا ، ولو سألني سائل : « ما هي أدهش المكائن التي استعملت خلال هذه الحرب ؟ » لقلت بدون تردد هي : « ماكينة التنظيم والتدبير » لأنني أعتقد أن تأثيرات القيادة العسكرية والاقتصادية والتنظيم الاجتماعي والتماسك القومي خلال هذه الحرب ، كانت أعظم وأهم بكثير من عمل جميع المكائن التي استحدثت واستخدمت خلالها ، لأنها كانت مدهشة في حد ذاتها ، كما كانت الواسطة الفعالة في اختراع وإحضار وتسيير المكائن المذكورة نفسها . . .

*

إن الحرب لا تزال مستمرة . ولا نغالي إذا قلنا انها قائمة بين « تنظيمات الامبراطورية البريطانية » وبين تأسيسات « الاشتراكية الوطنية الألمانية » من حيث الأساس . إن كلاً منا يستطيع أن يتنبأ عن نتيجة الحرب بعض التنبؤات ، كما يستطيع أن يدعم تنبؤاته هذه ببعض الحجج والبراهين . غير أنه لا يستطيع أن يدلي برأي حاسم في الموضوع . مع كل هذا أعتقد بأنه يحق لي أن أدعي دون أن أخشى تكذيب الوقائع في يوم من الأيام : إن النصر سيكون حليف التنظيمات التي ستظهر أشد تماسكاً وأكثر صلابة وأبعد نظراً ، وأقوى تدبيراً ، من نظيرها . . وبتعبير آخر ، أن الكلمة الحاسمة في الحرب الحالية أيضاً ستكون للقوى المعنوية ، بالمعاني التي شرحتها آنفاً .

أصول ستر الحقائق(*)

إن الفكر البشري ينزع دوماً إلى « معرفة الحقائق » ، ويبذل جهوداً كبيرة لرفع الأستار التي تخفيها عن الأبصار ، وكشف الأسرار التي تكتنفها من جميع الجهات ، فلا نغالي إذا قلنا إن تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة وتاريخ الأديان إنما هي بمثابة قصص للجهود المتواصلة التي بذلها الفكر البشري في سبيل اكتشاف الحقائق على هذا المنوال . . .

زد على ذلك ، أن بعض المفكرين لم يكتفوا بالسعي وراء « كشف الحقائق » فحسب ، بل بذلوا قصارى جهدهم لتعيين « أقوم السبل » التي تؤدي إلى اكتشاف الحقائق ومعرفتها أيضاً . فقد دوّن أرسطو طاليس أصول « منطق القياس » في القرون الأولى ، كما وضع « باكون » أسس منطق « الاستقراء » في أواخر القرون الوسطى ، وكتب ديكارت مقاله الشهير عن « أصول كشف الحقائق » في أوائل القرون الأخيرة ، كما ثبّت « كلود برنار » أسس الطرق التجريبية في القرن التاسع عشر . وقد ظهر بعد ذلك كثير من العلماء والفلاسفة الذين بحثوا عن طرق اكتشاف الحقائق ، في كل ساحة من ساحات العلم والمعرفة . . . هذا في ساحة الطبيعيات ، وذاك في ساحة النفسيات ، هذا في ميادين الاجتماع بوجه عام ، وذاك في ساحة الاقتصاد بوجه خاص . . . هذا في ميادين الفلك ، وذاك في أغوار التاريخ .

وهكذا ، تعبّدت أمام الفكر البشري طرق « كشف الحقائق » على اختلاف أنواعها . . . وأصبحت هذه الطرق من أهم مباحث الفلسفة العلمية .

*

(*) حديث أذيع من راديو بغداد سنة ١٩٤١ .

غير أنه ، مما يجدر بالانتباه أن بجانب هذه الجهود العظيمة المبذولة في سبيل « كشف الحقائق » ، جهوداً معاكسة لها كل المعاكسة تُبذل أحياناً . . . جهوداً تستهدف عكس ما يستهدفه العلماء والباحثون . . . جهوداً ترمي إلى « إخفاء الحقائق وكتمها » ، عوضاً عن إظهارها وكشفها . . . جهوداً تستهدف « ستر الحقيقة عن الأبصار » و « برقعتها ببراقع خداعة » ، تُظهرها بمظاهر تختلف عن وجوهها الأصلية اختلافاً كلياً . . .

إن هذا النوع من الجهود يبذل ـ عادة ـ بقصد دفع الأضرار أو جلب المنافع ، عندما يُتوقع حدوث ضرر من شيوع الحقيقة ، ويُنتظر حصول فوائد من كتمانها أو من ذيوع عكسها . . .

إن المنافع أو الأضرار التي تُستهدف في مثل هذه الأحوال كثيراً ما تكون شخصية . . مثل ستر عيب ، أو إخفاء جريمة ، استجلاب ودّ ، أو تسكين غضب ، تقديم خدمة لصديق ، أو أخذ ثأر من عدو . . . ومن المعلوم أن أمثلة ذلك تشاهد كل يوم في سلوك الكثيرين من الأشخاص ، في علاقاتهم العائلية ، ومعاملاتهم الاقتصادية . . وحياتهم الاجتماعية . .

غير أن المقاصد التي تُستهدف في مثل هذه الجهود ، قد تخرج عن نطاق المصالح الشخصية ، وتدخل في ساحات المصالح العامة ، وقد تكون من جملة المصالح القومية والوطنية .

وأما أمثلة الجهود التي تُبذل ـ بهذه الصورة ـ في سبيل « ستر الحقائق وبرقعتها » ـ بقصد خدمة المصالح العامة ، فتشاهد كل يوم ، فيما يسمى عادة باسم « الدعاية » .

*

إن الدعاية السياسية لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأمم ، منذ أقدم العصور إلى الآن . فإنها من حيث الأساس تكون سريّة في بعض الأحوال ، وعلنية في الأحوال الأخرى ، فردية في بعض الأحوال ، ومعشرية في الأحوال الأخرى .

وأما وسائل الدعاية فقد كانت في بادىء الأمر منحصرة في الأحاديث والخطب ، ثم انضم إليها ـ منذ قرنين ـ الصحف والنشرات المطبوعة ، وأخيراً ، انضم إلى كل ذلك الأفلام السينمائية والإذاعات اللاسلكية . .

تعمل الدعاية السياسية عملها بهذه الوسائل المتنوعة بلا انقطاع في حالتي السلم

والحرب . غير أنها تكتسب خطورة خاصة خلال الأزمات والحروب .

كان « نابليون » يقدر أهمية الدعاية حق قدرها فقال : « إن أربع جرائد معادية تستطيع أن تأتي باضرار ، تفوق أضرار جيش مؤلف من مائة ألف جندي » . إن تأثير الصحافة في هذا المضمار ، قد ازداد زيادة هائلة ، منذ عهد نابليون ، بسبب انتشار التعليم من جهة ، وتطور وسائط الحرب من جهة أخرى . وقد ثبت أن الصحافة لعبت دوراً هاماً في جميع الحروب التي نشبت منذ ذلك العهد ، ولا سيما في الحرب العالمية الأولى . . .

إن وسائل الدعاية التي توسّل بها المتحاربون خلال الحرب العالمية المذكورة صارت موضوع ابحاث كثيرة ، فلم تبق خفيّة عن الأنظار . فمن المفيد أن نستعرض أهم الحقائق التي ظهرت من تلك الأبحاث ، حول دور الدعاية في الحرب العالمية .

من المؤكد أن جميع الدول المتحاربة ، صرفت جهوداً جبارة ومبالغ طائلة ، في سبيل الدعاية . وأما ساحات الدعاية ، فكانت واسعة ومتنوعة جداً : دعاية في داخل البلاد ، دعاية في بلاد الأعداء ، دعاية في البلاد المحاربة . . .

دعاية في داخل البلاد نفسها ـ بقصد ادامة روح الحماسة ، ومكافحة روح التذمر والاستسلام والقنوط ، دعاية لنشر الايمان بالنصر النهائي ، بغية حمل الناس على تحمّل أعباء الحرب على اختلاف أنواعها ، انتظاراً لذلك النصر المأمول . . . دعاية في بلاد الأعداء ـ بقصد كسر معنويات الناس وإخماد حماستهم عن طريق زعزعة ايمانهم بضرورة الحرب من جهة ، وتخفيف اعتقادهم بالنصر النهائي من جهة أخرى ، وإحداث بلبلة في الأفكار ، وتغذية روح التخوف والتذمر والتردد والقنوط التي تؤدي إلى الاستسلام . دعاية في البلاد المحايدة ـ بقصد التأثير على المحاربين من جهة ، وعلى المحايدين من جهة أخرى . . وبغية توليد تيارات فكرية وسياسية ، تضمن مساعدة البلاد مساعدة معنوية ، أو اقتصادية أو سياسية ، وقد تؤدي إلى محالفة ومساعدة عسكرية فعلية .

وقد تبين من الأبحاث الكثيرة التي نشرت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، أنه قد حدث صراع عنيف بين الحلفاء وبين الدول المركزية ، في ساحة الدعاية . فقد وزّع اللورد نورثكليف الذي كان يتولى شؤون الدعاية الانكليزية ، على صحف امريكا نحو مائة وخمسين مليوناً من الدولارات في سبيل الدعاية للحلفاء ، كما صرفت الحكومة الألمانية لنفس الغاية نحو مائتي مليون من الماركات خلال السنتين الأوليين من الحرب . . كما تبين أن دعاية « دول الحلفاء » كانت أقوى وأعم وأنجع من دعاية « الدول المركزية » .

قال الكردينال « مرسييه » عندما سافر إلى امريكا بعد الهدنة واطلع على حقائق الأمور وبواطنها : « إن الحلفاء أحرزوا النصر بفضل جهود الصحافة » .

وقال الزعيم « نيكولاي » الذي كان رئيساً لشعبة الاستعلامات في أركان الجيش الالمانية : « إن الحلفاء تغلبوا على الجيش الألماني بواسطة الدعاية » كما قال : « بأن الصحافة كانت أقوى أسلحة الدعاية التي استخدمها الحلفاء ضد الألمان » . (ولا يغربنّ عن البال أن الاذاعة اللاسلكية لم تكن قد خرجت إلى عالم الوجود إذ ذاك) . ولذلك نجد أن هتلر شعر بتقصير الألمان في هذه الساحة ، خلال الحرب العالمية ، فاعتنى اعتناءً خاصاً بها ، قبل نشوب الحرب الحالية وخلالها .

إن الدعاية لا تتقيد كثيراً ، بقيود الحقيقة ، ولا تتورع عن اخفائها تارة وتشويهها طوراً ، كما أنها لا تتحاشى مخالفتها تماماً ولا تتأخر عن خلق الأكاذيب واذاعتها أيضاً عند الاقتضاء . فكثيراً ما تلجأ الدعاية إلى اختلاق الأكاذيب كما تبذل جهوداً كبيرة لإظهار هذه الأكاذيب بمظهر الحقائق الناصعة التي لا تقبل الشك . .

وقد عبر « كنغسلي مارتن » ، أحد أركان الصحافة الانكليزية عن فلسفة ذلك بأسلوب بليغ ، في أحد اجتماعات لجنة التعاون الفكري التابعة لعصبة الأمم ، حيث قال ما مؤداه :

« إن الحرب تبيح للانسان أن يخرج على الكثير من المبادىء الأخلاقية التي شبّ عليها ، وتحتم عليه أن يقدم على أعمال كثيرة ، تعتبر من المحظورات في الأوقات الاعتيادية . فلا غرابة إذا ما جعلت الكذب مباحاً ، بل إذا ما أظهرته بمظهر الواجب في بعض الأحيان . . . » .

هذا ومما يستحق الانتباه ، ان بين الحقيقة المحضة والكذب البحت درجات متفاوتة ، وأن من الأعمال والأقوال ، ما لا يمكن اعتباره موافقاً للحقيقة تماماً ، أو مخالفاً لها تماماً ، فلا يكون حقيقة خالصة ، ولا كذباً صريحاً .

إن رجال الدعاية يستفيدون من ذلك استفادة كبيرة ، فإنهم إذا اضطروا إلى تجنب الكذب البحت ، بعض التجنب ، خشية افتضاحه ـ يجدون وسائل كثيرة يتوسلون بها لتشويه الحقيقة بعض التشويه ، وتلوينها بألوان تلائم مقاصد الدعاية ، بوجه عام .

لنفرض أن أحد زعماء الأعداء خطب خطبة هامة ، فلا شك في أن رجال الدعاية في البلاد المعادية للزعيم المذكور لا يستطيعون أن يكتموا أخبار الخطبة كل الكتمان ، كما لا يستطيعون أن يعزوا إليه ما لم يقله أبداً ؛ غير أنهم مع ذلك يستطيعون أن يشوهوا الخطبة تشويهاً كبيراً . إنهم يلجأون إلى طريقة الإجمال

والتلخيص ، وخلال هذا التلخيص يحذفون بعض الفقرات ، ويقربون بين بعض الفقرات ، وبهذا الوجه يستطيعون أن يغيروا دلالة الخطبة تغييراً كبيراً ، دون أن يضيفوا إليها عبارة مكذوبة كذباً صريحاً .

وقد قال « كينغسلي مارتن » في أحد اجتماعات لجنة التعاون الفكري : « إن الصحفي الماهر يستطيع أن يكتب أعمدة كاملة لا يكون فيها « شيء » غير موافق للواقع ، ومع هذا يكون مجموع ذلك كله كذباً بحتاً » . وكل رئيس تحرير ماهر ، يستطيع أن يغيّر دلالة مقالة من المقالات تغييراً كلياً بإجراء تغيير طفيف في بعض العبارات ، وبدَسّ بعض العناوين البسيطة فوق الأقسام المختلفة منها .

فيجب علينا أن نعرف حق المعرفة أن دوائر الدعاية في جميع البلاد المتحاربة لا تزال تتفنن في هذه الأساليب المختلفة تفنناً كبيراً ، وتتقن صناعة هذه الأسلحة المعنوية إتقاناً خارقاً . . .

ومن ثمة ، يترتب على المثقفين الذين يودون الاطلاع على حقائق الأمور أن لا ينخدعوا بظواهر الأقوال ، ولا يعتمدوا على كل ما يقرأونه ويسمعونه ، بل عليهم أن يتلقوا أخبار الاذاعات بفكرة انتقادية دقيقة تساعد على كشف الحقائق ، بالرغم من المساعي التي يبذلها رجال الدعاية في سبيل سترها عن الأبصار .

اختلاف الآراء
باختلاف وجهات النظر

- ١ -

إن أهم المسائل الفلسفية التي تأمّل فيها واختلف عليها المفكرون منذ القرون الأولى هي : مسألة الحقيقة . وبتعبير آخر : مسألة المعرفة .

ما هي الحقيقة ؟ وكيف نستطيع أن نتوصل إلى معرفتها ؟ ما هي قيمة المعارف البشرية ، من وجهة مطابقتها للحقائق الكونية ؟ على ماذا نستند في أحكامنا العقلية ؟ وإلى أية درجة يحق لنا أن نعتمد على هذه الأحكام ، وأن نقطع بصحتها ؟

هذه المسائل صارت مداراً لأبحاث ومناقشات كثيرة ، ومنبعاً لآراء ونظريات متنوعة . ونستطيع أن نقول : إن أهم الفروق التي تميز « المذاهب الفلسفية » المختلفة بعضها عن بعض ، نشأت ، في حقيقة الأمر ، من اختلاف الأجوبة التي أعطيت على هذه المسائل الخطيرة .

فقد ظهر مذهب فلسفي شكّ أصحابه في قدرة العقل البشري شكاً كلياً ؛ فقالوا بوجوب الارتياب بجميع الأحكام العقلية ، وبضرورة الشك في كل الأمور . . كما ظهر مذهب فلسفي يعاكس ذلك معاكسة تامة . فقد اعتمد أصحاب هذا المذهب على العقل اعتماداً مطلقاً ، إذ قالوا : « إن العقل البشري جزء من العقل الخالق . فالتفكر إنما هو بمثابة « تذكر الخلقة واعادة الخلق » . وادعوا « ان كل ما هو مفكور ذهناً موجود فعلاً » . . وظهر مذهب فلسفي آخر ، قال أصحابه : « إن العقل ليس واسطة لمعرفة الحقيقة ، بل هو آلة للعمل » . كما زعموا « إن الحقيقة ليست المطابقة للواقع ، بل هي المساعدة على العمل » . . .

إن هذه المسائل وأمثالها كانت ـ بادىء الأمر ـ موضوع مناقشات فلسفية بحتة .

غير أنها أخذت ـ أخيراً ـ اتجاهاً علمياً ، وصارت تستنير بابحاث علم النفس وعلم الاجتماع أيضاً .

وقد لاحظ علماء النفس : إن للعواطف منطقاً خاصاً ، يختلف عن « منطق العقل » اختلافاً جوهرياً . كما لاحظ علماء الاجتماع ، أن « قوانين المنطق » التي تسير محاكماتنا وتسيطر عليها ، الآن ، لم تكن من الأمور التي خضعت لها أذهان جميع الأقوام في جميع الأزمان .

وقد لاحظ المفكرون ـ من جهة أخرى ـ أن الأحكام التي تُصدرها عقولنا ، تنقسم إلى نوعين أساسيين : النوع الأول منها يتناول خصائص الأشياء وأوصاف الحادثات نفسها ؛ وأما النوع الثاني منها ، فيحوم حول « القِيَم » التي نُضفيها نحن على تلك الأشياء والحادثات ، من « الحسن والقبح » أو « الخير والشر . . » فالنوع الأول يعبّر عما نعرفه عن شؤون الكون وحقائق الأشياء . وأما النوع الثاني ، فيعبر عما نشعر به أمام تلك الأشياء والحادثات ، من استحسان أو استهجان . .

ولا حاجة إلى القول : إن وجوه الخطأ والصواب في النوع الأول من الأحكام تتعين وتتبين بالمحاكمات العقلية والمناقشات المنطقية ؛ غير أن النوع الثاني منها لا يخضع لأمثال هذه المحاكمات والمناقشات .

يتبين من هذه التفاصيل : إن العوامل التي تؤثر في العقول وتوجه المحاكمات كثيرة ومتنوعة . ولهذا السبب ، نجد أن « المحاكمات العقلية » التي تحوم حول مختلف الأشياء والحادثات تتأثر تأثراً كبيراً « بالاطلاعات اللاحقة والمعلومات السابقة » ، التي تتعلق بتلك الأشياء والحادثات من جهة ، و « بالعواطف الفردية والنزعات الاجتماعية » التي تتصل بها من جهة أخرى. و « الأحكام العقلية » التي تصدر ـ بناء على هذه المحاكمات ـ عن الأشياء والحادثات تختلف اختلافاً كبيراً ، باختلاف هذه العوامل المختلفة الفكرية والعاطفية .

ولذلك ، كثيراً ما نشاهد أن الواقعة الواحدة تُوْجِدُ في أذهان الأشخاص المختلفين ونفوسهم آراءً وانطباعات متخالفة ؛ كما أن القضايا المتماثلة ، قد تُلهم الشخص الواحد ـ في ظروف متخالفة ـ آراءً وانطباعاتٍ متباينة . .

ـ ٢ ـ

اما أن القضية الواحدة قد تثير في نفوس الأشخاص المختلفين وأذهانهم انطباعات مختلفة ، فإن كل واحد منا يستطيع أن يجد في ملاحظاته اليومية ، أمثلة

كثيرة على ذلك . غير أني أود أن أذكر لكم مثالاً واقعياً واحداً ، أعتقد أنه من أبرز وأبلغ الأمثلة على هذه الحقيقة :

بين يديّ الآن قصيدتان قويتان متخالفتان ، لشاعرين كبيرين معاصرين ، عن واقعة واحدة ، وقعت في عاصمة الدولة العثمانية ، في أواخر عهد السلطان عبد الحميد .

كان ذلك سنة ١٩٠٥ ، لقد ارتاع الناس بعد وقت الظهر بقليل ، بدويّ انفلاق هائل ، هَزّ جميع أرجاء المدينة هزاً عنيفاً . لقد حدث هذا الانفلاق على مقربة من موكب السلطان ، بعد انتهاء صلاة الجمعة ، وأودى بحياة مئات من الناس ، ولكنه لم يُصب السلطان عبدالحميد نفسه بأي أذى . .

من المعلوم أن السلطان المشار إليه كان من صناديد الملوك المستبدين ، وكان يخاف على حياته خوفاً مَرَضياً ، فيتوقع في كل حين حصول اعتداء عليه من قبل أحد « الفدائيين » . فكان يتخذ لذلك شتى التدابير لصيانة نفسه من سهام « الاعتداء والاغتيال » . وكان يغالي في هذه التدابير مغالاة شديدة ، يوصلها أحياناً إلى درجة « المانيا » والجنون . .

إنه لم يستقر في أحد القصور التي شيدها اسلافه ، نظراً لقربها من بيوت الناس . فابتنى لنفسه قصراً جديداً على أحد التلال المنعزلة عن الأحياء ؛ وأحاط الطرق المؤدية إلى التل المذكور ، بقصور خاصة بـ « أمنائه المخلصين » ، ومساكن خاصة بـ « صنائعه المجرّبين » ، وأبعد بذلك عن نفسه وعن قصره جميع احتمالات « الاعتداء والاغتيال » . .

ولكنه كان « أمير المؤمنين » و « خليفة المسلمين » ، علاوةً على كونه « سلطان العثمانيين » . ولذلك كان يضطر إلى الخروج من قصره ـ أيام الجمعة ـ لأداء فريضة الصلاة جماعة ، في أحد الجوامع الكبيرة . وكان يصبح ـ من جراء ذلك ـ معرضاً لخطر « الاعتداء والاغتيال » مرة في الأسبوع ، خلال ذهابه إلى الجامع وإيابه منه .

فرأى السلطان عبدالحميد ، أن يزيل هذا « الخطر » أيضاً من طريق « حياته الغالية » بأسلوب حاسم حكيم : فشيد جامعاً جديداً ، على التل الذي يقوم عليه قصره الجديد ، فصار بذلك يستطيع الذهاب إلى الجامع والعودة منه ، دون أن يضطر إلى المرور بين المساكن والحارات ، ودون أن يُعرِّض نفسه إلى خطر « الاعتداء والاغتيال » الذي كان يتوقعه على الدوام . .

إنه كان يعتز بلقب « الخلافة » أكثر من اعتزازه بعرش « السلطنة » ، فكان

يذهب إلى الجامع المذكور ويعود منه ـ أيام الجمع والأعياد ـ بموكب يتناهى في الفخامة والجلال . ولكنه ـ بقدر ما كان يخاف من الشعب خلال هذه الاحتفالات كان يحرص على توفير وسائل « التفرج عليها » لسفراء الدول الذين يقيمون في عاصمة الخلافة ولكبار الأجانب الذين يؤمّونها من حين إلى حين ، ليظهر « أبهة السلطنة ، وجلال الخلافة » بأروع مظاهرها .

ولهذا السبب ، شيد قصراً خاصاً يشرف على « ممر الموكب » ـ بين القصر والجامع ـ أسماه « قصر التشريفات » وخصصه لجلوس الأجانب ، الذين يسمح لهم « بالتشرف » بمشاهدة هذه الاحتفالات الرائعة ، التي كانت تعرف باسم « مراسم السلاملك العالية »[٣].

وكان «الانفلاق الهائل » الذي ذكرته آنفاً ، قد حدث خلال أحد هذه الاحتفالات ، بناء على « الخطة » التي أحكم وضعها أحد الفوضويين البلجيكيين ، بغية القضاء على حياة السلطان عبدالحميد . كان الرجل قد استطاع الحصول على بطاقة تسمح له « بالتفرج » من قصر التشريفات . وكان قد حضر الاحتفالات عدة مرات ، ولاحظ خلالها نظام سير الموكب الملكي بكل انتباه واهتمام . وقد علم أن « بوق السلام » يدوي في الآذان حالما يخرج السلطان من الجامع ويركب العربة الملكية . وقد حسب المدة التي تمضي بين انتشار صوت البوق وبين مرور العربة من مفرق الشارع الذي تنتظر فيه عربات الزوار والمتفرجين ، وتأكد من أنها ثابتة ، لا تتغير . فدبّر الأمر على هذا الأساس : استحضر عربة خاصة ، حوّل « كرسي جلوس السائق » فيها إلى « ماكينة جهنمية » ـ حسب تعبير ذلك الزمان ـ مؤلفة من مخزن مملوء بمواد متفرقعة شديدة الانفجار ، ومن آلة توقيت دقيقة تضمن انفجار تلك المواد بعد مرور مدة معينة من تحريك زرها الخاص .

وفي اليوم الذي اختاره لتنفيذ خطته هذه ، أوصل العربة إلى مقربة من طريق مرور الموكب ، ثم انتظر هناك صوت البوق الذي يعلن خروج السلطان من الجامع وركوبه العربة ؛ وحالما سمع الصوت ، حرّك الزرّ ، وتباعد عن ذلك المكان . . .

وقد حصل الانفجار في الوقت المعين تماماً ، وكان انفجاراً هائلاً حطّم وهشّم عشرات من العربات والخيول ، وبعثر حطامها واشلاءها إلى مسافات كبيرة ، وأدى

(٣) إن منظر الموكب السلطاني ، الذي يمشي فيه عشرات من المشيرين والباشوات ، ومئات من كبار الضباط ـ بملابسهم المزركشة ، وسيوفهم المذهبة ، وأوسمتهم المرصعة ـ من بين صفوف عديدة من مختلف أصناف « الجنود الخاصة المتزيين بأزياء متنوعة الأشكال والألوان . . . كان من أهم ما يتوق إلى مشاهدته « كبار الأجانب » الذين يزورون « مقر السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية » في ذلك الزمان .

إلى جرح بضع مئات من الناس . . وموتهم . ولكن حدث حادث صغير ، كان كافياً لصيانة السلطان عبدالحميد من تأثيرات هذا الانفجار الهدام : فإنه بعد أن خرج من الجامع وهمّ بركوب العربة ـ وبعد أن دوّى في الجو صوت « بوق السلام الملكي » الرنان ـ تذكر السلطان عبدالحميد « قضية » ، رأى أن يكلم شيخ الاسلام فيها ، فتأخر لذلك عن الركوب مدة من الزمن . وهذا التأخر الطارىء صار سبباً لنجاة السلطان من حبال هذه المكيدة المحكمة ، لأن انفجار الماكينة الجهنمية ، قد حصل ـ لهذا السبب ـ قبل أن يصل الموكب إلى منطقة تأثيرها الفعال .

إن أخبار هذه الواقعة ، قوبلت بدهشة عظيمة في كل أنحاء الدولة العثمانية ـ بل في جميع بلاد العالم . . وعندئذ نظم الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي ، قصيدة رنانة هنأ بها السلطان على نجاته من شرور هذه المكيدة . . .

يعتبر شوقي ـ في قصيدته هذه ـ العمل الذي قام به في ذلك اليوم « عصابة شر » من « البغاة » ، جنايةً ما بعدها جناية ، ويبتهج لنجاة الخليفة منها ابتهاجاً لا يفوقه ابتهاج . ويدّعي بأن العالم بأسره سُرّ بذلك سروراً عظيماً ، وتقدم إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر والحمد ، حتى أن « البيت الحرام » نفسه شكر ربه لذلك ، و « جبل عرفات » نفسه اشترك في هذا الشكر ، كما أن جميع المساجد والجوامع انبرت « تستغفر الله » من هذه الجناية الفظيعة ، وتحمده على فشلها ، حتى أن أرواح الأموات ـ الذين ذهبوا ضحية لهذه الجناية ـ أيضاً صارت تدعو بطول العمر لأمير المؤمنين . وأما نجاته من « شرور هذه المكيدة » فلا يشك شوقي ـ في قصيدته هذه ـ بأنها كانت من جراء حفظ الملائكة الذين كانوا له « من عند الاله حماة » . . .

القصيدة معنونة بعنوان النجاة ، وهي طويلة ، تقع في سبعة وخمسين بيتاً ، ولست أرى داعياً إلى إثباتها كلها في هذا المقام . فسأكتفي بذكر بعض الأقسام منها ، لإعطاء فكرة عامة عنها .

إليك أولاً ، هذه الأبيات من مطلع القصيدة :

نجاة

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما — نجاتك للدين الحنيف نجاةُ
هنيئاً لطه والكتاب ، وأمة — بقاؤك إبقاءٌ لها وحياة
أخذت على الأقدار عهداً موثقاً — فلست الذي ترقى إليه أذاة
ومن يك في برد النبي وثوبه — تجزه إلى أعدائه الرميات
يكاد يسير البيت شكراً لربه — إليك ، ويسعى هاتفاً عرفات

وتستوهب الصفح المساجد خُشّعاً — وتبسط راح التوبة الجمعات
وتستغفر الأرض الخصيب وما جنت — ولكن سقاها قاتلون جناة
وتُثني من الجرحى عليك جراحهم — وتأتي من القتلى لك الدعوات
ضحكت من الأهوال ثم بكيتهم — بدمع جرت في اثره الرحمات
تُثاب بغاليه وتجزى بطهره — إلى البعث اشلاء لهم ورفات
وما كنت تحييهم فكِلهم لربهم ، — فما مات قوم في سبيلك ماتوا . . .

ثم دونك هذه الأبيات من وسط القصيدة :

إذا زلزلت من حولك الأرض رادها — وقارك حتى تسكن الجنبات
وإن خرجت نار ، فكانت جهنماً — تغذى بأجساد الورى وتُقات
وترتج منها لجة ومدينة — وتصلي نواحٍ حرّها وجهات
تمشيت في برد الخليل فخضتها — سلاماً وبرداً حولك الغمرات
وسرت ، وملء الأرض حولك ادرع — ودرعك قلب خاشع وصلاة
ضحوكا وأصناف المنايا عوابس — وقوراً وأنواع الحتوف طغاة
يحوطك ـ إن خان الحماة انتباهُهم ـ — ملائك من عند الاله حماة

وأخيراً اسمع هذه الأبيات التي تنتهي بها القصيدة :

نجت أمة لما نجوت ، وبوركت — بلاد ، وطالت للسرير حياة
وصين جلال الملك ، وامتد عزه — ودام عليه الحسن والحسنات
وأمّن في شرق البلاد وغربها — يتامى على أقواتهم وعفاة
سلامي عن هذا المقام مقصر — عليك سلام الله والبركات .

(من ديوانه « الشوقيات »)

فأنت ترى من هذه الأبيات كلها ، أن أحمد شوقي عبر عن ابتهاجه بنجاة أمير المؤمنين تعبيراً حماسياً جداً ؛ واسترسل في مدح السلطان عبدالحميد استرسالاً أوصله إلى أقصى درجات المغالاة . . .

*

ومن الغريب أنه عندما كان شوقي الكبير ينظم في مصر هذه القصيدة الطنانة ، ويعلن بها ابتهاجه وابتهاج العالم بأسره بنجاة أمير المؤمنين ، على هذا المنوال . . . كان شاعر تركي كبير في الآستانة ، هو توفيق فكرت الشهير ، ينكمش على نفسه ، وينظم قطعة شعرية رقيقة ، تندب « سوء حظ الأمة بنجاة السلطان عبدالحميد من هذه المكيدة المحكمة . . . » .

هذه القطعة الشعرية تحمل عنوان « لحظة تأخر واحدة » ، وهي قطعة شعرية قصيرة ، تتألف من خمسة عشر بيتاً فقط ، ولكنها تدل على تفكير مرير ، وحزن عميق ، وألم دفين . . . وهذه ترجمتها ترجمة تكاد تكون حرفية ، لكثرة الكلمات العربية المستعملة فيها :

لحظة تأخر واحدة . . .

ضربة ، ودخان . . . وتطايرت إلى أجواز الفضاء أشلاء من الأرجل والرؤوس والدماء والعظام . . . كأن « محفل أفراح » بكامله ـ أو « معشراً من المتفرجين » بأسره ـ قد نُتف نتفاً فنثر نثراً ، بأظافر خشنة ، ليد قهر جبارة . . .

أيتها الضربة المبجلة ، وأيها الدخان المنتقم ! . . . ما أنتِ ، ومن أنتِ ؟ . . . ما هو ، ومن هو السبب لهذه الصولة ، والدافع لها ؟

وراءك (ألف أنظار متجسسة) . . . وأنتِ تلوحين لها كَيَدِ غيب متخفية ، تنشر الخلاص والنجاة . . .

لدوِيِّك ثورة غيظ راعدة ، تثير شعور الحق والخلاص في كل مكان . . .

ومن صدمتك ، ترتعد أوصال الاستبداد القاهرة . . .

ومن اقترابك ، ترتجف أغرّ تيجان العظمة . .

إن الدهشة التي تلقينها في النفوس ، تهزّ رقاب القرون ، فتوقظ الشعوب من أعمق درجات النوم والسبات . . .

أيها الصياد الجليل الشأن ! . . . إنك لم تنصب شراكك عبثاً . . رميت ، ولكنك ـ واأسفاه ، بل وألف أسفاه . . . ـ لم تصب المرمى ! . . .

لو توقف ، هنيهة واحدة ، الفلك الذي لا يعرف الاستقرار . . أو لو لم يقف هو ـ صاحب ذلك التاج المشؤوم . . . لكان هذا العمل الذي أمسى الآن شبيهاً بجناية دامية ، قد صار خيراً لم يسبق له مثيل ، منذ قرون وقرون . . .

غير أن « الصدفة » ـ واأسفاه ! ـ الصدفة التي تلازم الأقوياء وتخاصم الضعفاء على الدوام . . . انبرت بغتة لمحو هذا التدبير الخارق . . . فأطفأت ـ في نفثة واحدة ـ هذا الأمل البارق . . .

فقد نقش الحظ الأعمى ، ساخراً ومتهكماً ، ديباجة غرور جديدة ، على صفحات تاريخ الظلم والاعتساف . . .

لقد نجا . . . فحق له أن ينتقم الآن . . .

ولكن ، على التاريخ الذي يستطيب السفالات ، أن لا ينسى هذه الحقيقة :

إن اللئيم الذي يلهو اليوم بالعبث بحياة أمة بأسرها . . . مدين بكل ملذاته هذه . . . إلى لحظة تأخر ـ ليس إلا . . .

(من ديوان أشعار توفيق فكرت : الرباب الكسير)

نرى من هذه القطعة الشعرية الرائعة ، أن هذا « الشاعر الاستانبولي » نظر إلى الواقعة نظرات تختلف عن نظرات « الشاعر المصري » اختلافاً تاماً : إنه أسف كل الأسف على « لحظة التأخر » التي أدت إلى نجاة السلطان من الموت ، واعتبر ذلك بمثابة صفحة جديدة أضيفت إلى صفحات « تاريخ الظلم والاعتساف » على يد « الحظ الأعمى » .

قارن بين هاتين القصيدتين المكتوبتين في وقت واحد ، عن واقعة واحدة . لاحظ موجة السرور والابتهاج التي تنبعث من القصيدة الأولى ، وجو الحزن والألم الذي يغمر جميع أقسام القصيدة الثانية . وازن بين الأخيلة التي تتراءى للشاعر الأول وبين التي تتراءى للشاعر الثاني ، أمام هذه الواقعة . . . ترَ أن التباين في هذا المضمار قد وصل إلى أقصى حدود الامكان .

أما أسباب هذا التباين الشديد ، فهي تظهر للعيان ـ بوضوح تام ـ عندما نلاحظ « وجهات نظر » كل واحد من هذين الشاعرين ونبحث عن نزعاتهما الفكرية والعاطفية :

كان شوقي يعيش في مصر ، وينظر إلى السلطان عبدالحميد ، كـ « خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين » بكل معنى الكلمة . وكان لا يعرف عنه وعن أعماله شيئاً غير ما كان يشاهده بنفسه ، عندما يزور « قصر الخلافة » بمعية « فخامة الخديو » . وكان يرى تلك المدينة العظيمة من خلال « الجو الأريستوقراطي » الذي يغمر القصور الكثيرة ، المنثة على شواطىء البوسفور الجميلة ، من خليج أميرجان ، حيث قصر الخديو ، إلى تل يلديز حيث قصر السلطان . . . وكان ينظر إلى الأشياء وإلى الناس بذلك « المنظار الخاص » الذي يُضفي على كل شيء ألواناً زاهية ، ولا يظهر شيئاً من فساد الحكم ، وشقاء الشعب ، وآلام المثقفين ومظالم الاستبداد . . فكان من الطبيعي أن يبتهج شوقي بنجاة السلطان ، وأن يعتبر ذلك بمثابة نعمة من نعم الله ، وأن يسارع لذلك إلى تهنئة « أمير المؤمنين » بهذه النجاة المبينة . . . تهنئة مشبوبة بحرارة الايمان . . .

وأما توفيق فكرت ، فكان يعيش في عاصمة الدولة نفسها ، بين جماعة من الأحرار التواقين إلى الاصلاح . وكان يعرف كل ما يختفي وراء هذه المظاهر الفخمة من حقائق فجيعة وما يستتر تحت تلك الألقاب الضخمة من مآسٍ فظيعة . . . وكان من الذين يشعرون في أعماق أنفسهم بثورة مكبوتة على استبداد عبدالحميد القاسي ، ومن الذين يلاحظون أن ذلك الاستبداد كان قد أخذ يطغى طغياناً جنونياً ، فيتسلط على العقول ويفسد الأخلاق ، بشتى الطرق والأساليب . وكان قد عبّر عن شعوره هذا أصدق التعبير وأعمقه ، في قصيدة طويلة ، عنونها بعنوان « الضباب » ، لقّب فيها عاصمة السلطنة والخلافة ، بلقب « فاجرة الدهر » . . . فكان من الطبيعي أن يتألم هذا الشاعر الحساس ألماً شديداً ، عندما يسمع تفاصيل الواقعة ، ويطلع على نجاة السلطان منها من جراء « لحظة تأخر واحدة » . وكان من الطبيعي أن يعتبر هذه النجاة « من مظالم المقادير » ، وأن يكتب ما كتبه في هذا الصدد بتفكير مرير . . .

ولا حاجة إلى القول ، أن القصيدة التي كتبها شوقي ، رُفعت في حينها إلى « السدة السنية » ـ حسب تعبير ذلك الزمان ـ ونالت من لدن السلطان كل تقدير واستحسان ، غير أن القطعة التي كتبها توفيق فكرت أحيطت بالسرية والكتمان ، فلم تنتشر إلاّ بين طلاب الحرية الذين كانوا يتناقلونها بحذر كبير وحيطة عظيمة ، إلى أن حدث الانقلاب الذي قضى على عهد الاستبداد الحميدي ، فانبرت عندئذ الألسن ، إلى إنشادها وتكرارها دون خوف ولا وجل . ومن المعلوم أن المدة التي مضت بين حدوث الانفلاق المذكور وبين اعلان الدستور وانقلاب الأمور ، كانت أقل من ثلاث سنوات . . .

ـ ٣ ـ

بعد أن بينت ـ بهذا المثال البارز الذي سردته بتفصيلات وافية ـ « كيف أن انطباعات الأشخاص المختلفين عن الواقعة الواحدة قد تتباين تبايناً كبيراً في بعض الأحوال » ، عليّ أن أنتقل إلى الشق الثاني من الأمر ، فأبين ـ بمثال بارز أيضاً . « كيف أن انطباع الشخص الواحد عن القضايا المتماثلة ، قد يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف ظروفه الخاصة » .

إن هذا الاختلاف يحدث ـ بوجه خاص ـ عندما تندسّ بين عناصر المحاكمات العقلية وحدودها ، بدون شعور الشخص وانتباهه ، بعض العوامل العاطفية والدوافع النفعية ، فتخرج تلك المحاكمات عن جادّة المنطق السليم . . .

ولقد وقعت على أبلغ الأمثلة لذلك ، في احـدى « الكلمات » التي كتبهـا المفكر الفرنسي المشهور آلين (Alain) .

« آلين » هذا اسم مستعار ، اختاره الكاتب لنفسه ـ لنشـر « كلماتـه الحكمية » ـ عوضاً عن اسمه الأصلي اميل أوجيه (Emile Augier) .

وقـد قرأت لهـذا الكاتب المفكـر في إحدى المجـلات التربـوية كلمـات حكيمـة عديدة ، تـدل على روح نقـد لاذعة ، ورغبـة اصلاح عميقـة . فأردت أن أتـوسع في معرفة آرائه العامـة ، فجلبت الكتب التي جمعت كلماتـه المختلفة . وكـان بينها كتـاب يحتوي على كلمات في « السياسة والأخلاق والاجتماع » . ولقد وقعت في هذا الكتاب على كلمة كان قد كتبها ونشرها عند استيلاء الطليـان على طـرابلس الغرب ، فبـادرت إلى مطالعتها ـ بطبيعة الحال ـ بكل شغف واهتمام . .

كان الرجل يستهجن هذا الاستيلاء كل الاستهجـان ، ويضم صوتـه إلى صوت الخطيب الشهير جوريس (Jaures) الذي كان قد هاجم الطليان بمقالات نارية رائعـة ؛ ثم يرد على أقوال الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الـدفاع عن الـطليان ، رداً مقنعـاً ، ينم عن نظرات انسانية حيادية .

وكان مما كتبه آلين في هذا الصدد ، ما مآله :

« يقولون لنا : إن الدولة الايطالية مقابـل الدولـة العثمانيـة ، إنما هي بمثـابة الحضـارة والمدنيـة مقابل البربرية والهمجية . فيجب علينا أن نتمنى تغلب الأولى على الثانية ، لصالح الانسانية .

« إن هـذا القول ، لا يخلو من الاصـابة والـوجاهـة : فلا شـك في أن ايطاليـا عنـدمـا تؤسس أنظمتها وتفرض قوانينها على طرابلس الغرب ستقضي على تجارة الرقيق وعلى سائر الفـظائع الافـريقية السائدة في تلك البلاد . غير أنه يجدر بالمرء أن يلاحظ أنه كان في استطاعة ايطاليـا أن تفعل كـل ذلك دون أن تلجـأ إلى الهجوم والاستيـلاء . كان في استـطاعتها أن تصـل إلى الغايـة المذكـورة عن طـريق مساعدة السلطات المحلية الشرعية ، دون حرب وقتال . . ولكن ايطاليا أرادت أن تظهر قوتها فسلكت سبيل العنف والحرب ، مما يدل دلالة قاطعة على أن قصدها من ذلك كله لم يكن تقرير النظام والسلام في طرابلس الغرب ، بل كان بسط سيادتها على ذلك القطر » .

وقد ختم الكاتب المفكر كلمته هذه بالعبارات التالية :

« فيحق لنا أن نقول ، أن عمل ايطاليا في هذا الهجوم والاستيلاء كان عملاً بربرياً ، لا مبرر له أبداً . ولا شك في أن هذه البربرية ستكون شائبة سوداء تلطخ تاريخ هذا القرن » . . .

عندما قـرأت هذه العبـارات ، قدرت الكـاتب كل التقـدير ، بـطبيعة الحـال .

وتقديري هذا تحول إلى « الاعجاب الشديد » ، عندما وصلت إلى العبارة الأخيرة التي تصرّح أن هذا الاستيلاء سيكون شائبة سوداء في جبين تاريخ القرن العشرين . . .

غير أني تذكرت ـ في الوقت نفسه ـ أن استيلاء الفرنسيين على المغرب الأقصى سبق استيلاء الطليان على طرابلس الغرب بمدة غير طويلة ، حتى أن ايطاليا لم تقدم على مهاجمة طرابلس الغرب إلا بعد أن اتفقت مع فرنسا ومع سائر الدول المستعمرة ، على أساس : إطلاق يد فرنسا في مراكش ، مقابل اطلاق يد انكلترة في مصر ، وايطاليا في طرابلس الغرب . .

وعندما تذكرت ذلك كله ، ارتسم في ذهني حالاً هذا السؤال : « ترى ، ماذا قال هذا الكاتب المفكر ، عن استيلاء فرنسا على المغرب الأقصى ؟ . . » .

ومن الغريب أنني وجدت جواب هذا السؤال ، في نفس الكتاب ، بعد الكلمة التي نقلتها آنفاً . . لأن هذا الكاتب المفكر الشهير ـ بعد ما أصدر على الطليان الحكم الحاسم السابق الذكر ـ نقل البحث والحديث إلى بلاده وقومه ، فقال : « وأما نحن الفرنسيين ، في مراكش . . فما كنا نحارب لأجل الاستيلاء ، بل لأجل بسط أجنحة السلام ، على تلك البلاد » . .

ثم أخذ يؤيد قوله هذا بهذه الملاحظات والمدّعيات : « إننا كنا نحارب هناك في سبيل دين البلاد ، وسلطات البلاد . كنا نعمل عمل الضباط ، لا عمل المحاربين . كنا نتفق مع كل المسالمين ، على جميع المقاتلين » . .

ولكن الجيوش الفرنسية كانت لا تزال تحارب في المغرب الأقصى ؛ وكانت لا تزال تستولي على أقسامه المختلفة مرحلة بعد مرحلة ! فما كان في مقدور « المفكر الشهير » أن ينكر هذه الحقائق الراهنة . غير أن حرصه الشديد على تبرئة ذمة بلاده من « التهمة » التي وجهها هو إلى ايطاليا ، حمله على اختلاق المعاذير لفرنسة ـ واختراع الفروق بين عملها وعمل ايطاليا ـ ولو عن طريق المغالطات الصارخة : « نعم ، اننا كنا نسير نحو الاستيلاء . ولكن ذلك كان بالرغم منا ، دون حماس وهياج . . إن ما كنا نرمي إليه في المغرب الأقصى ، لم يكن سلطة لنا ، بل كان نظاماً وأمناً وسلاماً لكل الناس . . إن هذا الاستيلاء ، كان مما لا يمكن تجنبه بوجه من الوجوه . وقد جرى تحت تأثير هذه الفكرة ، توصلاً إلى هذه الغاية وحدها . . إن كل ما عملناه هناك كان من الأمور الضرورية ، التي ما كان يجوز أن لا تُعمل أبداً » . . .

وبعد تسطير هذه المزاعم التي حاول الكاتب المفكر أن يخدع بها نفسه أولاً ، ثم قراءه ثانياً . . . لم يتورع عن العودة إلى ذكر ايطاليا ، وانهى كلمته بهذه العبارة :

« ولكن ذلك لا يمكن أن يقال عن ايطاليا . . . » .

وقد تكلم « آلين » عن قضية مراكش في محل آخر ، وبوسيلة أخرى أيضاً فقال : « لو كان المراكشيون عادلين فيما بينهم ، منتظمين في أعمالهم ، قادرين على الأعمال الصناعية ، متعودين دفع الضرائب ومراقبة النفقات العامة . . لكانوا أقوياء مثلنا ؛ ولما احتجنا نحن ـ عندئذ ـ إلى حمل السلاح ضدهم ؛ بل لذهبنا إلى بلادهم لنتاجر معهم ، نشتري منهم ونبيعهم ، حسب ما تقتضيه منافعنا المتقابلة . ولكن الآن ، نحن مضطرون إلى الاستيلاء على تلك البلاد ، ومدفوعون نحو هذا الاستيلاء بحكم الوقائع وسوقها . . وكل شيء يدل على أن تهدئة تلك العشائر المقاتلة ، مما لا يمكن أن يتم بوسائل أخرى . إن العمل الذي نقوم به نحن في تلك البلاد ، لم يكن عملاً حربياً ، بل كان عملاً انضباطياً . . ليس إلا » . .

لاحظ ، كيف تغيرت مقاييس الرجل ومحاكماته ، دفعة واحدة ، تغيراً غريباً ، حالما انتقلت أبحاثه وكلماته من « استيلاء إيطاليا على طرابلس الغرب » إلى « استيلاء فرنسا على المغرب الأقصى » ؟ !

أمامنا حادثتان متشابهتان تشابهاً تاماً ، تحدثان في وقتين متقاربين جداً . وكاتبنا الفرنسي المفكر يقول عن احداهما أنها « شائبة سوداء في جبين حضارة القرن العشرين » ، في حين أنه يخلع على الثانية رداء « خدمة الانسانية » ! استيلاءان واستعماران موجهان إلى قطرين عربيين . . وبينما يقول هذا الكاتب العبقري ، عن احدهما « إنه عمل بربري لا مبرر له مطلقاً » ، يقول عن الآخر « إنه عمل انساني ، يخدم الحضارة » ! .

يُقدّر هذا الكاتب الافرنسي الحقيقة الراهنة حق قدرها ، ويسلم ببربرية الاعتداء والاستيلاء ، عندما يتعلق الأمر بايطاليا ؛ ولكنه يغض البصر عنها ، ويختلق شتى المبررات لها ، عندما يتعلق الأمر بفرنسا ! . . . إن محاكماته العقلية تبقى سليمة ، فلا تخرج عن جادة المنطق والصواب ، عندما يتكلم عن قضية تتعلق ببلاد أجنبية عنه ؛ ولكن محاكماته هذه تفقد سلامتها ، فتخرج عن دائرة المنطق والصواب ، حالما تنتقل أبحاثه إلى قضية تتعلق بالبلاد التي ينتمي إليها ! . . .

ـ ٤ ـ

ولا تحسبْ أن هذه الحالة العقلية ، وهذه النزعة الفكرية ، من الأمور الشاذة التي لا يشاهد أمثالها إلا نادراً . بل ثق بأن ذلك من الأمور الاعتيادية التي تسود النفوس في كل زمان ومكان . إن العواطف تلعب دوراً هاماً في المحاكمات ، حتى عند المفكرين والعلماء ، لا سيما في القضايا التي تتصل بالسياسة الوطنية . ولا يشذ عن

هذه القاعدة إلا عدد قليل من المفكرين ، أستطيع أن أذكر على رأسهم الفيلسوف الانكليزي المشهور هربرت سبنسر (Herbert Spencer) .

إن هذا المفكر العظيم ، قد استطاع أن يتسامى ـ في كتاباته ـ عن اعتبارات « السياسة الوطنية الضيقة » ، وأن يحافظ على حياده الفكري حتى أمام قضايا « السياسة الاستعمارية » . وقد ذكر ـ في « مقدمة علم الاجتماع » التي نشرها ـ الشيء الكثير عن فظائع الاستعمار . ولم يستثن بلاده من تبعات هذه الفظائع مطلقاً . وكان مما قاله في هذه المقدمة :

« عندما نشاهد شعباً من الشعوب المحكومة يجاهد في سبيل التحرر والاستعباد ، نُعجب به إعجاباً شديداً ، ونصفق لاستقلاله تصفيقاً حاراً . غير أن ذلك الشعب ، إذا كان من الشعوب المحكومة لنا نحن ، عندئذ يثور في نفوسنا نحوه غيظ شديد عوضاً عن الاعجاب » .

« نحن نصفق لكثير من الوقائع الاستقلالية ، ومع ذلك لا نجد في المحاولات التي يقوم بها الهنود للتخلص من نيرنا شيئاً غير « الخيانة المحضة » ، كما أننا لا نعذر أبداً الجهود التي يبذلها الايرلنديون لتأسيس قومية مستقلة عنا . ونتجاهل تجاهلاً مطلقاً ، أن جميع هذه الوقائع تحدث لسبب واحد ، وتهدف إلى غاية واحدة ، فالأحكام التي نصدرها عنها يجب أن تكون متماثلة تمام التماثل » .

« نحن نغتاظ من أعمال الظلم والاعتساف ، عندما تصدر عن غيرنا ولكننا نستحسنها ، ونصفق لها ، إذا ما صدرت عن موظفينا . . . نحن ننظر إلى الأعمال المتماثلة بنظر الخير أو الشر ، حسب كونها موجهة أو غير موجهة إلينا . . » .

ولا يكتفي هربرت سبنسر بسرد هذه النزعات النفسية سرداً عاماً ، بل يوضحها ببعض الأمثلة أيضاً : « كلنا نذكر موجة الاستهجان والغيظ التي غمرت النفوس في جميع أنحاء انكلترة ، عندما انتشرت المظالم التي ارتكبها الفرنسيون في الجزائر ، لإخضاع العرب الذين لم يستسلموا لهم ، بل حاولوا مقاومتهم . لا شك في أن تلك المظالم كانت فظيعة جداً ، ولا شك في أن الغيظ الذي تأجج في نفوسنا من جراء ذلك كان محقاً تماماً . ولكنه ، يجب علينا أن نلاحظ ـ في الوقت نفسه ـ بأننا نحن أيضاً ارتكبنا من المظالم ما لا يقل فظاعة عن ذلك في مستعمراتنا المختلفة ، ولا سيما في الهند . . . » .

يذكر هربرت سبنسر كثيراً من المظالم التي ارتكبها الأوروبيون في امريكا ، ويصرح بأن الانكليز اشتركوا أيضاً في تلك المظالم ، ثم يرد على من يزعم بأن « ذلك قد حدث في زمان مضى وانقضى » بقوله : « إنني أستطيع أن أذكر لهم كثيراً من المظالم المخجلة التي لا تزال ترتكب في مستعمراتنا » ، ويذكر فعلاً أمثلة عديدة عليها . . .

غير أن أهم الآراء التي أبداها هربرت سبنسر في هذا المضمار ، تتجلى بأجلى

أشكالها في العبارات التالية : « إننا نستطيع أن نميز الحق من الباطل بسهولة في الخلافات التي تحدث بين الأمم ، عندما يكون الطرفان غريبين عنا . ولكننا نفقد القدرة على التمييز ، ونصبح ـ كالعميان ـ عاجزين عن رؤية أنوار الحقيقة ، إذا ما كنا من ذوي العلاقة في القضية ، أو من العاملين والمؤثرين فيها . . . » .

*

هذا ، ويجب أن لا ننسى أن أمثالّ هذا المفكر المحايد الحر ، قليلون وقليلون جداً . وأما الكثرة الساحقة من الكتّاب والمفكرين فإنهم يزنون الأمور بميزانين عقليين متخالفين ، ويقدرون الأعمال بمقياسين أخلاقيين متباينين . . . ويخصصون أحد هذين الميزانين وهذين المقياسين للأمور المتعلقة ببلادهم وبمواطنيهم ، ويستعملون الميزان الآخر ، والمقياس الآخر لدرس سائر القضايا ، وتقدير سائر الأعمال . . .

ولهذا السبب ، يجب علينا أن لا نخدع بكل ما يكتبه الأوروبيون عن القضايا التي تتعلق بالحوادث السياسية وتتصل بالأمور القومية ، حتى ولو كانوا من العلماء والمفكرين . ويجب علينا ـ بوجه خاص ـ أن لا نعتمد كثيراً على ما يكتبه « أحد الطرفين » في الأمور التاريخية والسياسية ، بل يجب علينا أن نتوسع ونتعمق في درس أمثال هذه الأمور ، وأن نقابل ونوازن ما يكتبه « أحد الطرفين » من ذوي العلاقة ، في كل واقعة وكل قضية ، بما يكتبه « الطرف الآخر » من جهة ، وبما كتبه غير ذوي العلاقة ، من جهة أخرى . فإننا بهذه الصورة ، وبهذه الصورة وحدها ، نستطيع أن نتوصل الى معرفة الحقيقة ، في القضايا السياسية والمسائل التاريخية . .

جامعة الدول العربية

إن جامعة الدول العربية التي تشكلت وتأسست بصورة رسمية ، قبل عامين ، وليدة « احتياج حقيقي » ، أخذ يشعر به ويعمل لمعالجته رجال الفكر والسياسة ، في مختلف الأقطار العربية ، منذ أعوام عديدة .

في الواقع ، أن كل واحدة من الدول العربية التي وقّعت على ميثاق هذه الجامعة كانت قد بدأت تتكون تحت شروط وظروف خاصة بها ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الشروط والظروف التي أحاطت بتكوين غيرها . وذلك من جراء تنوع وتباين سياسات الدول الاستعمارية التي كانت قد بسطت حكمها أو نفوذها على كل قطر من الأقطار العربية على حده .

ولهذا السبب أخذت الأمور تسير في كل واحدة من الدول العربية في اتجاه خاص ؛ فصارت هذه الدول تتباعد بعضها عن بعض من حيث التشكيلات الادارية والقضائية ، والاتجاهات التعليمية والتثقيفية ، والتنظيمات الاقتصادية والمالية . .

والواقع أن أهالي هذه الأقطار لم يستسلموا إلى الحكم الأجنبي استسلاماً تاماً ، بل قاموا يثورون عليه ، ويسعون للتخلص منه ، بوسائل مختلفة وفي فترات متفاوتة . غير أن هذه الحركات التحررية أيضاً أخذت ـ في بادىء الأمر ـ في كل قطر من الأقطار العربية ، شكلاً خاصاً بذلك القطر ، يختلف عن أساليب النضال التي سادت غيره من الأقطار ، بطبيعة الحال .

ولهذا السبب ، صار « التباعد » الذي ذكرناه آنفاً يزداد ويشتد سنة بعد سنة ، ويؤدي إلى تباين عظيم في الأوضاع الحكومية وفي جميع الشؤون العامة التي ترتبط

ارتباطاً وثيقاً بتلك الأوضاع .

ولكن هذا التباعد كان قد نتج من تأثير العوامل الخارجية المسيطرة على مختلف الأقطار العربية ، كما ذكرنا ذلك آنفا ، وكان مخالفاً للروابط المعنوية التي تربط هذه الأقطار بعضها ببعض ، بأواصر متينة من « القومية الطبيعية » الكامنة في وحدة اللغة والتاريخ .

فكان من الطبيعي أن تعمل هذه القوى المعنوية أيضاً عملها الفعال في هذا المضمار ، وأن تُحدث من الحركات الشعبية والتيارات القومية ، ما يعاكس العوامل الخارجية المذكورة ، وما يولد ، بجانب تيار « التباعد الحكومي الرسمي » ، تيار « تقارب شعبي قومي » ، يزداد قوة واتساعاً على مرّ السنين .

لقد بدأت هذه الحركات التقاربية ، مستقلة عن أعمال الحكومات ولكنها أخذت بعدئذ تنال منها ـ شيئاً فشيئاً ـ التحبيذ ، فالتأييد فالتشجيع ، فالمساعدة ، وذلك حسب تقدّم الحكومات المذكورة في سبيل الاستقلال الاداري والسياسي ، وتشبعها بالروح القومية والوطنية ؛ وصار نطاق هذا التأييد الرسمي وهذه المساعدة الحكومية ، يتوسع تدريجياً ، وينتقل من دولة إلى دولة ، حتى شمل جميع الدول العربية بلا استثناء .

إن قوافل الطلاب والمدرسين التي أخذت تسير بين مختلف الأقطار العربية ، والمؤتمرات والمهرجانات التي صارت تُعقد وتقام في عواصم تلك الأقطار ، كانت من آثار هذه الحركات القومية من جهة ، ومن عواملها الفعالة من جهة أخرى .

إن محنة فلسطين قد عملت عملاً هاماً في هذا السبيل ، لأنها أعطت برهاناً ملموساً على وحدة مقررات البلاد العربية ، على الرغم من تعدد دولها . والجهود التي استهدفت معالجة هذه المحنة أيضاً بدأت تتجلى في بادىء الأمر على شكل حركات شعبية قومية ، بواسطة هيئات وجمعيات مجردة عن كل صبغة رسمية ومحرومة من كل مساعدة حكومية . غير أن هذه الأحوال والأوضاع تبدلت بعد ذلك تدريجياً ، فأخذت الحكومات العربية المختلفة تساعد هذه الجهود والحركات شيئاً فشيئاً ، أولاً بصورة سرية ثم بصورة علنية ، إلى أن صارت تتبارى في اظهار العطف عليها والعمل لمساعدتها بصورة فعلية .

وأخيراً ، فإن وقائع الحرب العالمية الأخيرة ، وما صاحبها من المحن وما أعقبها من الأحداث . . في مختلف البلاد العربية . . أكثرت من الدلائل المادية والبراهين القطعية على « وحدة المصالح والمقدرات » التي تربط هذه البلاد بعضها ببعض .

وساعدت بذلك على إشاعة فكرة التضامن ، وتقوية نزعة الاتحاد بين جميع الدول العربية .

وقد تهيأت بكل ذلك ، جميع الأسباب الداعية إلى تنظيم هذه النزعات والحركات القومية التي انتشرت على هذا المنوال ، أولاً في البيئات الشعبية ، ثم في المحافل الحكومية في جميع البلاد العربية .

*

إن جامعة الدول العربية ، ما هي إلا « الجهاز الرسمي » الذي وُجد لتحقيق هذا التنظيم القومي العام . . فهي بهذا الاعتبار ، بمثابة « منظمة طبيعية » تكونت بتأثير عوامل قومية غزيرة المنافع ، عميقة الجذور .

وبتعبير آخر أنها « عضوية حية نامية » تمخضت منها مشيمة العالم العربي تمخضاً طويلاً . . وقد ولدت هذه العضوية ولادة طبيعية ، زودتها بجميع شروط النمو والحياة .

*

إنني وصفت هذه المنظمة بـ « الطبيعية » وشبهتها بـ « العضويات الحية » . وقد فعلت ذلك ، تمييزاً لها عن « المنظمات الاصطناعية » التي توجدها « الاتفاقات والتدبيرات السياسية » مستفيدةً من بعض العوامل الطارئة ، لتحقيق بعض الأغراض العارضة . إن أمثال هذه المنظمات تعيش ما عاشت تلك العوامل الطارئة وتزول بزوالها ، دون أن تخلف آثاراً حية .

إن جامعة الدول العربية لا تشبه تلك المنظمات بوجه من الوجوه .

إن مقارنة بسيطة بينها وبين إحدى المنظمات الاصطناعية ، تكفي للبرهنة على ذلك بكل وضوح وجلاء : من المعلوم أن الجمهورية التركية ، سعت سعياً حثيثاً لتكوين منظمة سياسية تجمع بينها وبين الدول البلقانية . وقد نجحت في مسعاها مدة من الزمن ، إذ توصلت إلى تكوين « الحلف البلقاني » المعروف . وقد عقدت الدول الداخلة في هذا الحلف ، عدة مؤتمرات دورية ، تبودلت خلالها الخطب الرنانة ، وألفت اللجان الكثيرة ، واتخذت المقررات الهامة ، غير أن هذا الحلف لم يعمر طويلاً ، ودخل في خبر كان . والآن ، انشطر أعضاء هذا الحلف إلى معسكرين متنابذين ، وأخذوا يتخاصمون أشد اختصام .

وذلك لأن هذا الحلف كان يضم دولاً مختلفة ومتخالفة من حيث اللغة والتاريخ

والنزعات القومية ، والمنافع الأساسية . . ولم تتحالف هذه الدول بعضها مع بعض إلا بتأثير بعض الظروف السياسية التي كانت طرأت على العلاقات الدولية ابان عقد الحلف المذكور .

فكان من الطبيعي أن ينفرط عقد هذه الدول المتحالفة ، حالما تتغير تلك الظروف السياسية ، وكان من الطبيعي أن تسارع ـ بعد ذلك ـ كل واحدة منها إلى إعادة النظر في موقفها وسياستها ، على ضوء الأحوال العالمية الجديدة .

ولا حاجة إلى القول ، إن أحوال جامعة الدول العربية تختلف عن كل ذلك اختلافاً جوهرياً : لأن الروابط التي تربط الدول العربية بعضها ببعض ، ليست من نوع الظروف الطارئة أو المنافع العارضة ، بل هي من نوع العوامل الأساسية الدائمة التي تتصل بمشاعر شعوبها ، وتنبثق من أعماق نفوسها . فإن هذه الروابط تتولد ـ من حيث الأساس ـ من « وحدة اللغة والتاريخ » ، وتتقوى ـ بوجه خاص ـ بكثير من العوامل التي تنضم إلى هذه الوحدة وتدعمها ، مثل « الاتصال الجغرافي » ، و « الترابط الاقتصادي » ، و « التجاوب العاطفي » . ومن المعلوم أن « التجاوب العاطفي » ينجم عن « مماثلة المحن والآلام ، والمشاكل والمخاطر والأماني والآمال » . . . في الماضي والحال والاستقبال .

فنستطيع أن نؤكد أن جامعة الدول العربية لم تتألف بتأثير ظروف سياسية طارئة . بل ـ بعكس ذلك ـ انها تكونت تحت تأثير عوامل قومية عميقة وتيارات طبيعية دائمة ، فلا شك في أن هذه العوامل التي تضافرت على تكوينها قبل بضعة أعوام ، ستستمر على تغذيتها ، وتقويتها وتنميتها على الدوام .

ولهذا السبب ـ ولهذه الملاحظات ـ قلت وأقول : إن جامعة الدول العربية منظمة طبيعية قوية ، وعضوية حية نامية . وأرى لزاماً عليّ أن أقول ـ في الوقت نفسه ـ إن هذه المنظمة لا تزال في بدء تكوينها ، وهذه العضوية لا تزال في مقتبل عمرها ، فلا يزال أمام جامعة الدول العربية مجالات واسعة من النمو والتطور والتقدم .

إن هذه الجامعة قد تتعرض ، في المستقبل ، إلى بعض الأزمات المتأتية من كيد الأعداء والموتورين ، وقد تصاب ببعض الخدوش والجروح . . غير أني أعتقد أن في روح العروبة التي تغذيها وتنميها على الدوام ، من القوة والمناعة ما يكفل لها التغلب على كل ما يمكن أن يعترضها من الأزمات والعقبات .

لا داعي لليأس . . .

كان الأستاذ أحمد أمين قد نشر في العدد ٤١٥ من مجلة الثقافة التي تصدر بمصر القاهرة ـ مقالاً تحت عنوان « مأساة » ذكر فيه كتاباً تلقاه من صديق سوري ـ عن بعض الحوادث التي حدثت في سورية إذ ذاك[٤] ـ ثم قال :

لقد قرأت هذا الكتاب وقرأته فطفر الدمع من عيني حزناً على حالة هذه البلاد .

ليست هذه الحالة ـ يا صديقي ـ هي حالة سوريا وحدها ، بل حالة الشرق كله ، وعندنا مثل ما عندكم .

عندنا مثل ما عندكم . . . لا يستطيع مصلح جادّ أن يُتم إصلاحه حتى تتألب عليه الجهات المأجورة والمضللة وذوات الغرض فترميه بأشنع التهم حتى يضطر إلى الفرار من الميدان تاركاً الدار تنعي من بناها .

عندنا مثل ما عندكم . . . تتحكم فينا شهوة الحكم ، وتقضي على كل منطق وعقل وخلق ، ولا تتورع الأحزاب أن تحارب بالباطل فتقلب الصحيح فاسداً ، والفاسد صحيحاً ، ولا تخجل من أن تسمي الأبيض أسود والأسود أبيض ، بل لا تخجل من أن تسمي الشيء الواحد أبيض وأسود في زمنين لغرضين ، ولا تتعظ بما يجري في الأمم الحية من تحكيم المصلحة القومية وتقديمها على المصلحة الحزبية وتفاهم رؤساء الأحزاب إذا حزب الأمر وعظم الخطب .

---

(٤) « الحوادث » المشار إليها هي خروج الطلاب في دمشق بتحريض من الاخوان المسلمين ، في مظاهرات عدائية ضد الحصري ، هاتفين : « لا إله إلا الله ، الحصري عدو الله ! » مرغمين الحصري على تقديم استقالته من مستشارية وزارة المعارف ومغادرته دمشق .

عندنا مثل ما عندكم . . . تلعب الأحزاب بالطلبة ويتخذونهم أداة لقلب حكومة ، وقيام حكومة ، ولا يرعون الله في حق ولا علم ولا خلق ، ويسفكون دمهم لمصلحتهم ، ويضحون بعلمهم لأهوائهم ، لا فرق في ذلك بين حزب وحزب ، وعهد وعهد .

عندنا مثل ما عندكم . . . تلعب التيارات الخفية باسم الوطنية ، فمن يخشى زوال نفوذه التجاري يحارب الاستقلال ، ومن يخشى على نفوذه السياسي يؤيد الاحتلال . والبلاد تصاب بالانحلال في دينها ، في خلقها ، في اقتصادياتها ، في عقلياتها ، حتى لا وحدة في أي شيء ، والحكومات تشكو مُرّ الشكوى من شعوبها ، والشعوب تشكو مُرّ الشكوى من حكوماتها ، ولا تضامن ولا تعاون ، وإنما انحلال أثر انحلال .

عندنا مثل ما عندكم . . . رجال دين يطلبون الدنيا ، ثم لا يهيئون أنفسهم للدنيا كما تتطلب الدنيا .

عندنا مثل ما عندكم . . . وزارة تأتي فتبدأ في الاصلاح فلا تلبث أن تذهب وتأتي وزارة فتهدم ما بنت وتبدأ من جديد ، ولا نزال في بناء وهدم وبناء وهدم ، حتى لا يتم بناء ولو كان كوخاً .

عندنا ـ يا صديقي ـ مثل ما عندكم في كل شيء ، ففي كل حارة مأتم ، وفي كل شارع جنازة . واعذرني إذا يئست فقلت إن الشرق لا يصلح إلا بمعجزة .

أحمد أمين

وعندما اطلع « أبو خلدون » على هذا المقال ، أرسل إلى الأستاذ أحمد أمين رداً تحت عنوان « لا داعي لليأس » وهذا هو نص الرد المذكور :

إلى الأستاذ أحمد أمين بك .

لقد قرأت المقال الذي نشرتموه في الثقافة ، تحت عنوان : « مأساة » .

وبعد الشكر على العاطفة الأخوية التي أبرزتموها نحوي أرى من واجبي أن أبدي بعض الملاحظات على روح التشاؤم الذي أظهرتموه فيه .

فإنكم بعد أن وصفتم ـ لمكاتبكم السوري ـ آثار الأنانية المستحوذة على النفوس ـ في مصر كما في سورية ـ وصفاً مؤثراً ، ختمتم المقال بالكلمات التالية :

« واعذرني إذا يئست ، وقلت : إن الشرق لا يصلح إلا بمعجزة » .

وأنا بدوري لأرجو أن تعذروني إذا خالفتكم في هذا المضمار ، فقلت لكم بلا تردد : كلا ، أيها الأستاذ ، أنا لا أرى أي مبرر لليأس من الصلاح .

لأنني لا أزال أؤمن إيماناً راسخاً ، بأن سورية ومصر وسائر البلاد العربية سائرة نحو الصلاح ، بالرغم من جميع الأزمات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تنتابها في الحالة الحاضرة ، وبالرغم من جميع العقبات والمهاوي التي ستعتري طريقها في مستقبل الأيام .

ولا أزال أؤمن إيماناً راسخاً بأن الأمة العربية ستصل إلى المكانة التي تصبو إليها ، بفعل طبيعتها ، وبجهود أبنائها المخلصين ، دون أن تحتاج إلى معجزة من المعجزات .

إن المساوىء الأخلاقية والنواقص الاجتماعية التي ذكرتموها . . إني أعرفها حق المعرفة ، وأشعر بمخاطرها أعمق الشعور . فقد أكسبتني ظروف حياتي الفعالة خبرة واسعة بها ، وأطلعتني على الكثير من خباياها .

إني أعرف أن داء الأنانية متفش في جميع الأقطار العربية ، والتضامن في سبيل الخير العام يكاد يكون مجهولاً فيها . ولا أجهل أن هذه الأنانية الطاغية تكوّن تربة خصبة جداً لتغذية الدسائس والمؤامرات ، التي كثيراً ما تضحي بالمصالح العامة على مذبح الأغراض الشخصية .

كما أعرف أن النزعة القومية والوطنية ، لم تكتسب بعد ـ في أي قطر من الأقطار العربية ـ القوة الكافية لكبح جماح الأهواء والأنانيات ، ولم تتجه بعدُ الاتجاهَ اللازم للحيلولة دون نجاح الدسائس والمؤامرات .

وأعرف أن الأغراض الشخصية كثيراً ما تتقنع بقناع خداع من المظاهر الوطنية أو الدينية ، وتصبح بذلك أشد ضرراً على المصالح القومية .

إني أعرف كل ذلك .

ومعرفتي بكل ذلك ، لم تكن من نوع المعارف النظرية التي تتكون من التفكير المجرد ؛ بل هي من نوع المعارف العملية ، التي تنبثق من دروس الحياة الحقيقية .

لأنني قضيت شطراً كبيراً من حياتي في « العمل » بين ضروب من هذه الأنانيات ، وألوان من هذه الدسائس ؛ وكثيراً ما عرَّضت نفسي ـ بطبيعة الحال ـ إلى صدمات تلك الأنانيات ، وسهام تلك الدسائس .

ولا أنكر أن هذه الصدمات وتلك السهام كانت عنيفة ومؤلمة جداً في بعض

الأحيان حتى أنها كانت أخذت عدة مرات شكل مصائب ونكبات . ولا أكتم أن آثار البعض من تلك الصدمات ، لا تزال تثقل كاهلي منذ عدة سنوات .

ومع كل ذلك . . . أؤكد لكم كل التأكيد ، بأنني لم أرَ في هذه الأمور والأحوال كلها ما يستوجب اليأس أبداً ؛ ولم أستسلم من جرائها إلى التشاؤم أو القنوط في يوم من الأيام .

ذلك لأنني اعتقدت ـ ولا أزال أعتقد ـ أن هذه الاختلالات الأخلاقية والاجتماعية ، التي نتألم ونشكو منها ، لا تخرج عن نطاق الأزمات التي يجب أن تسمى « شبه طبيعية » ؛ لأنها من نوع الاختلالات الجسمانية والنفسانية التي تحدث عادة في بعض الأدوار من الحياة ، مثل الحميات والاختلالات التي ترافق الحمل والولادة والتسنين والبلوغ .

إن انتقال الشعوب والبلاد من الحكم الأجنبي إلى الحكم الوطني ، لا يمكن أن يتم بدون إحداث أزمات في نفوس الناس ، واختلالات في الأوضاع الاجتماعية ، لأن الحكم الأجنبي يترك آثاراً سيئة ، ويولد اعتيادات رديئة في نفوس المستسلمين له من ناحية ، ونفوس الثائرين عليه من ناحية أخرى . وهذه الآثار والاعتيادات تكون عميقة وراسخة ، بنسبة طول أمد الحكم الأجنبي من جهة وشدة الكفاح الوطني من جهة أخرى .

أنا لا أريد أن أتوسع في هذا المقام في تحليل هذه الآثار ، ووصف هذه الاعتيادات . ولكني أقول إنها لا يمكن أن تزول بمجرد زوال الحكم الأجنبي ، وانتهاء عهد الكفاح ضد ذلك الحكم ، بل أن ذلك يتطلب كفاحاً من نوع جديد تحت شروط جديدة .

وهذا الكفاح الداخلي ، الذي يجب أن يقوم ضد الأوضاع الراهنة والعادات الراسخة ، لا يقل صعوبة عن الكفاح الذي يقوم ضد السلطات الأجنبية ، بل ربما كان أشد صعوبة منه : لأنه يقترن عادة بتبلبل في الأفكار والآراء ، وتخالف في المنازع والاتجاهات ، وتنازع في الخطط والمناهج . . . كل ذلك بالاضافة إلى التنافس على الحكم أو على الصيت والجاه .

ومن الطبيعي أن هذه العوامل كلها تُحدث أزمات ومشكلات كثيرة ، مما لا يمكن التغلب عليها إلا بعد مرور مدة من الزمن كافية لإحداث « تخمر نفسي واجتماعي » خاص .

وأما موقف المفكرين والعاملين تجاه هذه الأزمات والمشكلات فيجب أن يكون

مماثلاً لموقف الطبيب تجاه المرأة التي تتلوى بآلام الحمل أو الوضع ، وتجاه الطفل الذي يلتهب بحميات التسنين ، وتجاه المراهقة التي تقترب من طور البلوغ . . . موقف تيقظ وتدبر دون قنوط ، موقف عمل ومعالجة دون قلق .

هذه هي زبدة عقيدتي الاجتماعية ـ وقولوا إذا شئتم : عقيدتي السياسية ـ في الأزمات المختلفة التي تجتازها البلاد العربية ، في الحالة الحاضرة .

*

إن هذه العقيدة ، قد تكونت لديّ منذ مدة طويلة ، بإلهام التاريخ ووحيه .

فإن كل ما أعرفه عن التاريخ البعيد والقريب والأقرب . . . التاريخ البعيد الذي اطلعت عليه من قراءة الكتب ، والتاريخ القريب الذي تتبعت سيره منذ بداية حياتي الفكرية ، والتاريخ الأقرب الذي اشتركت فيه خلال حياتي العملية . . . وخلاصة القول : كل ما أعرفه عن التاريخ بجميع أنواعه وأقسامه وأدواره ـ يشهد على صحة ما أقول ، ويقوي اعتقادي في هذه القضية .

ألقوا نظرات دقيقة على صفحات تواريخ الدول الحديثة التي انفصلت عن الدولة العثمانية ، منذ أوائل القرن الماضي ، من الدولة اليونانية إلى البلغارية فاليوغوسلافية . . . تروا أن جميعها اجتازت أزمات كثيرة ، لا تقل خطورة عن الأزمات التي نحن نتألم منها الآن . كلها ذاقت مرارة القلاقل والاضطرابات ؛ كلها أصيبت بطغيان الأنانيات ، ومنيت ببلبلة الاتجاهات ، كلها تعرضت إلى ألوان من الدسائس والمؤامرات .

قد يقال : إن زماننا هذا يختلف عن زمان نهوض تلك الأمم ونشوء تلك الدول اختلافاً كبيراً ؛ لأن الزمان الذي نعيش فيه الآن ، هو زمان سرعة البرق . والدور الذي نجتازه الآن هو دور إطلاق المدافع الصاروخية واستغلال الطاقات الذرية .

ولكني أقول ـ مقابل ذلك ـ إن امكانياتنا نحن أوسع بكثير من إمكانيات تلك الأمم ، وتاريخنا نحن أطول وأسمى من تاريخ هؤلاء .

ثم أزيد على ذلك ، فأقول : إن التخمر النفسي والاجتماعي الذي أشرت إليه آنفاً قد بدأ منذ مدة غير قليلة من الزمن ، وقد تقدم كثيراً . وأنا لا أشك بأن نتائجه ستظهر إلى العيان قريباً .

إن أمثال هذه التخمرات النفسية والاجتماعية تبقى ـ بوجه عام ـ خفية على

معظم أنظار المشاهدين ، وظهور نتائجها إلى العيان يكون مفاجأة بالنسبة إلى أكثر المعاصرين .

إني أستطيع أن أذكر كثيراً من الوقائع التاريخية التي توضح رأيي في هذا المضمار ، وتؤيده تأييداً تاماً .

هاكم مثالاً من تاريخ ايرلندا :

لقد قرأت ما كان كتبه الجغرافي الشهير « أليزه ركلوس » عن ايرلندا والايرلنديين ، في أحد مجلدات كتابه الضخم ـ الذي نشره في العقد التاسع من القرن الأخير : يسترسل المؤلف في وصف الأنانية المستحوذة على نفوس الايرلنديين ، ويؤيد قوله هذا بذكر كلمة كانت تسير مسرى الأمثال بين الانكليز :

« إذا أردتم أن تشووا ايرلندياً واحداً ، فوضعتموه على السفود ، وجدتم على الفور عشرات من بني جلدته يتطوعون لتدوير ذلك السفود فوق النار » .

ومن المعلوم أن الايرلنديين أدهشوا العالم بروح التضحية والتضامن الخارق الذي أظهروه في حركة الـ « شين فين » ، وذلك قبل أن يمضي على تاريخ هذه الكتابة ربع قرن !

وهاكم مثالاً آخر من تاريخ المانيا :

لقد قرأت في أحد مجلدات « قاموس المحاورات » فقرة مقتبسة من مقالة كانت نشرتها جريدة « التايمس » اللندنية ، عن ألمانيا ، عقب مؤتمر فرانكفورت . يصف محرر المقالة البلبلة التي حدثت في المؤتمر المذكور ، ثم يقول :

« إن هؤلاء القوم لا يزالون في حاجة إلى من يذكرهم على الدوام ، بأنهم ـ قبل كل شيء ـ ألمان » . وبعد ذلك يشير إلى السياسة التي سارت عليها الدول إزاء ألمانيا في مؤتمر فينا ، ثم يختم المقالة بهذه الكلمات : « يظهر أن هؤلاء فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم » .

هذا ، والمدة التي مضت بين انتشار هذه المقالة في جريدة التايمس ، وبين إعلان وحدة ألمانيا ـ بعد انتصارات « سادوفا وسه دان » كانت تقل عن عقدين من السنين !

وهاكم مثالاً آخر من تاريخ الشرق القريب ، كنت قد شاهدته بنفسي خلال شبابي :

توليت ـ في أواخر عهد عبدالحميد ـ ادارة أحد الأقضية التي أصبحت الآن جزءاً من الدولة البلغارية ، وبذلت جهوداً كبيرة لدرس أحوال القضاء وجمعت دلائل قاطعة

على سوء سلوك بعض الموظفين ، وقدمت إلى الوالي مشروع اصلاح عام ، يتضمن فيما يتضمنه من الأمور « فصل وتأديب هؤلاء المرتشين » . وبعد بعض المخابرات ، رأيت من الضروري أن أذهب إلى مركز الولاية ، لأشرح اقتراحاتي وأؤيد طلباتي ، بأحاديث شفهية . فدخلت على الوالي ، وبدأت أسرد عليه بتفصيل وحماس « الدلائل القاطعة التي حصلت عليها عن ارتشاء هذا ، وسوء سلوك ذاك . . ولكني دهشت عندما رأيت الوالي يقابل ايضاحاتي بهذه الكلمات : « أعرف يا ابني ، أعرف أن هنا أيضاً - في مركزالولاية أيضاً - يوجد أمثال الموظفين الذين ذكرتهم . أعرف أنه يوجد بين الموظفين الذين يحيطون بي هنا ، العاجز والفاسق والسارق . ولكن ما العمل ؟ إني أغمض عيني على أعمالهم ، فيجب عليك أنت أيضاً أن تغمض عينيك . » .

أنا لا أرى لزوماً - في هذا المقام - إلى شرح ما جرى بعد ذلك . ولكني أقول : إنه قد تيسر لي - بعد مدة - أن أرى الرجل الذي كان جابهني بهذا الاعتراف الفادح وأتحفني هذه النصيحة المخدرة ، قائداً لجيش الحرية الذي زحف على عاصمة الدولة العثمانية ، وخلع عبدالحميد ، وقضى على الحركة الرجعية الشهيرة . وأما المدة التي مضت بين هذا الزحف وتلك الملاقاة فقد كانت أقلّ من أربع سنوات !

*

إن الأمثلة التي ذكرتها آنفاً ، لم تكن من الأمور الشاذة ، بل إن في هذه اللحظة لا تزال تتوارد على ذهني عشرات من أمثالها ، من التاريخ القريب والبعيد ، في الشرق وفي الغرب .

ولذلك ترونني دوماً واسع الأمل وقوي الرجاء . فلا أزال أقول : إن يومنا أحسن وأصلح من أمسنا ، وغدنا سيكون أحسن وأصلح من يومنا . . . وذلك بالرغم مما يمازج يومنا من المساوىء والمآسي ، وبالرغم مما يحدق بغدنا من المشاكل والمخاطر .

وعندما أقول : يومنا هذا أحسن وأصلح من أمسنا ، لا ألقي الكلام جزافاً ، بل أقول ذلك عن تفكير تام ، وبعد تأمل عميق ، ومستنداً إلى وقائع وذكريات كثيرة .

فإني لا أزال أذكر العهد الذي كانت فيه مصر تجهل القضية العربية جهلاً يكاد يكون مُطبقاً ، وتعرض عنها إعراضاً تاماً ، إن لم تلعنها وتخاصمها أحياناً .

ولا أزال أذكر الدهشة التي اعترت جماعة من طلاب الجامعة المصرية الذين زاروا العراق قبل نحو ستة عشر عاماً ، عندما رأوا أن الطلاب العراقيين يعتبرون أنفسهم عرباً .

ولا أزال أحتفظ بما كتبه أحد المعلمين العراقيين عن الفكرة العربية ، مدعياً بأنها « دسيسة سورية » ابتدعها رهط من السوريين لينعموا بخيرات العراق . . ولا أزال أذكر الترحيب الذي كانت تلقاه أمثال هذه الدعايات في كثير من الأوساط .

ولا أزال أذكر الدعايات التي كانت تُنشر في لبنان ، لإيهام الناس بأنهم لا يمتون إلى العروبة بصلة ، وبأنهم من أحفاد الفينيقيين إن لم يكونوا من نسل الصليبيين .

ولا أزال أذكر الكتابات الصادرة من قلم أحد الوزراء في سورية ، وهي تنعت الثورة العربية بوجه عام والثورة السورية بوجه خاص بأشنع النعوت ، وتدعي بأنها أضرت البلاد ، وأخرت العمران .

إني أذكر كل ذلك وأذكر المئات من أمثال ذلك ذكراً واضحاً وقوياً . . فأقول بلا تردد : إننا ـ خلال ربع قرن ـ اجتزنا مراحل خطيرة ، وذللنا عقبات كثيرة ، ربما كانت من أدق المراحل وأخطر العقبات . والشوط الذي قطعناه في هذه السبل الوعرة ، بعد تلك البداية الشاقة ، يكفي لشحذ عزيمتنا على مواصلة السير ـ واجتياز العقبات الباقية ـ بخطى أسرع وأثبت من الخطوات السالفة ، بدون تشاؤم ولا قنوط .

وقد يقول لي قائل : ولكن ماذا عن الجهود التي يذهب معظمها سدى ـ ضحية للأغراض الشخصية ـ والفرص الثمينة التي تضيع بين الدسائس الدنيئة . . . ؟ .

غير أني أقول بلا تردد : هذه من سنن الحياة التي لا رادّ لها .

فإن الحياة كفاح ونضال بكل معنى الكلمة ؛ وهو يتطلب ـ بطبيعته ـ الموت والفناء للكثير من الأشياء .

وركب التقدم يحتاج على الدوام إلى وقود كثير من الجهود والدموع والدماء .

وإذا نظرنا إلى حقائق الأمور بنظرات فاحصة دقيقة ، استطعنا أن نقول : إن بهجة الربيع ، ما هي إلا رداء فضفاض يستر عن الأنظار فناء الملايين من البذور وموت الملايين من الأحياء .

فلا يجوز لنا ـ والحالة هذه ـ أن نطمع بالحصول على ثمرات فعلية من جميع الجهود التي نبذلها ، بل يجب علينا أن لا نتلهف كثيراً على ما يبقى منها ، بدون ثمرة ظاهرة .

ولا شك في أن البيئة التي نعمل فيها ـ في هذه المرحلة من تطورنا الاجتماعي والسياسي ـ لم تكن من الأتربة الخصبة التي تثمر فيها الجهود الصادقة أوفر الثمرات ،

بل هي من الأتربة الضعيفة التي يفنى فيها قسم كبير من البذور .

ولكن علمنا بهذه الحقيقة ، لا يجوز أن يلقينا في بحر التشاؤم والقنوط . . بل يجب أن يحدو بنا إلى مضاعفة العمل لاصلاح وتسميد ذلك التراب ، مع المبالغة في إحسان البذار ، للحصول على القدر اللازم من المحصول ، بالرغم من كثرة البذور التي ستفنى تحت التراب .

الاعمال القومية لساطع الحصري

طبعة خاصة يصدرها
مركز دراسات الوحدة العربية

ابو خلدون ساطع الحصري

- ولـد في صنعاء اليمن عام ١٨٧٩ . وهو من عائلة عربية اصلها من الحجاز وقدمت الى حلب في القرن التاسع الهجري
- عمل في السلك الاداري العثماني في البلقان حيث درس على الطبيعة نشوء القوميات البلقانية قبل الحرب العالمية الاولى
- التحق بالملك فيصل الاول واصبح وزيراً للمعارف في الحكم الفيصلي بدمشق
- فاوض الجنرال غورو قبيل معركة ميسلون
- خرج من سوريا مع الملك فيصل الاول، والتحق به بعد ذلك في العراق حيث تولى شؤون المعارف والثقافة
- جُرد من جنسيته العراقية وأُخرج من العراق عام ١٩٤١، وذلك لتأييده للجانب العراقي في الحرب العراقية ـ البريطانية
- عمل مستشاراً للجنة الثقافية في جامعة الدول العربية
- أسس معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة عام ١٩٥٣ واصبح مديراً له، والذي سمي فيما بعد معهد البحوث والدراسات العربية
- توفي في بغداد عام ١٩٦٨ ودفن في مقبرة الامام الأعظم.

الطبعة الثانية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية « سادات تاور » شارع ليون

ص. ب : ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون : ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤

برقياً : « مرعربي »

تلكس : ٢٣١١٤ مارابي

الثمن [illegible] ل. ل. [illegible]و ما يعادلها